فريد الأنصاري

قناديل الصلاة

مشاهدات في منازل الجمال!

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

قناديل الصلاة

مُشاهداتٌ في منازلِ الجمالِ!

تأليف

فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الرابعة
١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الأنصاري ، فريد .
قناديل الصلاة : مشاهدات في منازل الجمال / تأليف فريد الأنصاري . - ط ١ . - القاهرة ؛ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٩م .
١٦٨ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ١ ٣٣ ٧٣٣ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - الصلاة (إسلام) .
أ - العنوان .
٢٥٢,٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

الإهداء ٥
تقديم ٧
بارقة ١٣

الفصل الأول

- يا أيها الحيران.... هنا الصلاة فادخل ١٩
- حلية الغر المحجلين ٢٦
- والصلاة نور ٣١

الفصل الثاني

- هذا لعبدي ولعبدي ما سأل ٣٩
- في ملكوت اللَّه ٤٥

الفصل الثالث

- وخر راكعًا وأناب ٥٥
- إلى مقام الحمد والثناء ٦١
- واسجد واقترب ٦٥
- جلسة بين يدي الملك ٧٦
- في موكب العابدين ٧٩
- وهب عبير التحيات ٨٢

الفَصْلُ الرَّابِعُ

- مطالع الكوكب الدري.. ٩٩
تجليات المطلع الأول.. ١٠٣
تجليات المطلع الثاني ١٠٦
تجليات المطلع الثالث.. ١٠٨
تجليات المطلع الرابع.. ١١١
تجليات المطلع الخامس.. ١١٣
- في منازل ناشئة الليل.. ١١٧
- مع صفوف الملائكة ١٢٧
- بهجة الجمعة.. ١٣٧
- مع الأنبياء والصدِّيقين ١٤٦
- **والخاتمة فاتحة خير**.. ١٥٩
- نبذة عن المؤلف.. ١٦٣

* * *

الإهداء

إلى أَطْيَافِ الْمُدْلِجِينَ بِمَحَارِيبِ السُّرَى..

الْمُوقِدِينَ فَتِيلَ التَّرَاتِيل..

مِنْ لهيبِ الشوقِ وتَبَارِيحِ الجوَى..!

إلى الحيَارَى التائهين بينَ الحرائقِ والدُّخان..

أُهْدِي هذه القَنَادِيل..

محبكم: فَرِيدٌ الأَنْصَارِي

تَقـدِيم

بقلم الأستاذ: **أحمد رزيق**

كثيرة هي المصنفات والكتب التي ألفت في موضوع الصلاة، وكثيرة هي الأقلام التي نسجت بمداد الصدق والإخلاص تفاصيل محراب التبتل بين يدي الخالق العظيم، خيوطَ نور تهدي السالكين إلى أقوم المسالك الموصلة إلى اللَّه، لا تتزاحم أبدًا وإن اختلفت ألوانها وتباينت، من حيث ما تشيعه من دفء وحرارة.. كلها تتآزر وتلتحم، ويكمل بعضها بعضًا؛ ليستعيد الجناحُ المهيض عافيته، ويفلت من إسار الشرود.. ثم يحلق في أجواء الحرية والطهر من جديد، عبدًا للَّه وحده، يشكل من خلال حركة الركوع والسجود والقيام والقعود، سلوكَ التكامل والانسجام مع كل ذرة من ذرات هذا الكون الشاسع، المسبح بحمد اللَّه العلي القدير!

خيوط نور قد يفتح اللَّه على اللاحق منها، فيضيف إلى السابق ويزيد عليه، وقد يكتفي اللاحق بإعادة تشكيل تفاصيل المحراب، كما رقشها السابق، دون أن يزيد أو يضيف إلى المعمار الرائع ولو لبنة واحدة، وقد تأتي المحاولة الأخيرة باهتة ضعيفة، أمام شلال الإحاطة والدقة التي وسم بها التليد.. ورغم ذلك كله يبقى لكل لون طعمُه الخاص، ودائرته التي يملأ جوانحها بفيض لألائه، والتي قد تتسع أو تضيق، حسب قوة الشعاع، وقدرته على الامتداد والانتشار، وحسب مساحات الصفاء والاستجابة، والقابلية الثاوية في غور ذواتٍ يحاصرها صقيع المنافي، وتتلبسها الأهواء السود!.

ومن هذه الأنوار التي نحرص أن يعم وهجها الرباني كلَّ نفس، وأن تصل خيوطها إلى عمق كل وجدان، لتوقظ فيه جمال الرجاء، ولذة العبادة، وتحيي فيه شوق التبتل الصادق بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتؤجج فيه رغبة الارتواء من نور الهدى.. من هذه الأنوار نقدم لك أيها القارئ الكريم « قناديل الصلاة »..

مشكاة المسافر في هذه الدنيا، التي يُمسخ الإنسانُ فيها ألف مرة في اليوم! وتمسخ معه فيها كل القيم والأفكار والأشياء الجميلة..!.

كوثر انثيالات رقراق، تغوص فيه الروح دون تردد، لتتطهر من كل أدران الطين، الذي أضحى يكبل أرواح أبناء الصحوة وغيرهم من المسلمين، الذين استغفلتهم دنيا الكدح؛ فقتلت فيهم لحظات الصفاء والإشراق التي تمكِّن الإنسان من كشف الزغل المخاتل، واجتناب « جحيم الضياع الذي لا ينتهي »..! أو الذين أغواهم مكر الليل والنهار؛ فانحدروا إلى قيعان اللهو والغفلة، يكرعون في صلف أجوف، نخب خسران الدنيا والآخرة!

قراءة متبصرة في مفردات الذات والكون، تنطلق من قاعدة توحيد الوجهة نحو اللَّه، الواحد الأحد الصمد، لترسم بنبض الذات المتبتلة في محراب الجمال والجلال، لوحةَ الخضوع المطلق، ومشهدَ انقياد كل مفردات الكون لرب خالق بارئ مصور.

سَفَرٌ من كهف الذات المسيَّج بالطين، وبظلمات الفجور، وبوسخ المال والأعمال.. إلى محراب التعبد في حضرة المعبود. سفر يُدلج فيه كل المحبين سيرًا إلى اللَّه.. « تحفهم قناديل الأنس، ويحدوهم جمال الرجاء ».. سفر من عالم الدخن والفناء، إلى فضاءات الصفاء والبقاء..

تلك هي الرحلة التي نقترحها عليك أخي القارئ، رحلة تؤنسك فيها « قناديل الصلاة » بأنوارها المشعة، من الأذان إلى تكبيرة الإحرام، إلى الفاتحة، إلى

الركوع والسجود.. أنوار يشكلها قلم الفقيه الشاعر الروائي بلغة إيحائية شفيفة، تمتح من مشكاة القرآن، وتنهل من حوض النبوة المترع بفيض الخير والجمال، فتستوي الرحلةُ نَصًّا يربك الممحص الراغب في تصنيفه.. قطعة أدبية فريدة، وتأملات دقيقة في حركة الإنسان والكون والحياة.. وإشراقات روحية لا يفتح اللّه بها إلا على العارفين به، ومادة فقهية ثرة، تخترق النص من أوله إلى آخره.

تلك هي الرحلة التي نقترحها عليك أخي القارئ، فإذا شئت الإدلاج إلى محبوبك؛ فاركب معنا « قناديل الصلاة »..!

أحمد رزيق

***

فاتحة السير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

[الفاتحة: ٢ – ٧]

بارقة

جاءني شاحبَ الوجه، حزينَ القلبِ، جريحَ الوجدان.. فقال:

أَمَّا أَنَا يا صَاحِ فقد أَزْمَنَتْ أَدْوَائي، وأصبحتُ أَسِيرَ بَلْوَائِي.. ولقد تِهْتُ في حيرة البحث عن الحكماء الناصحين، ومللتُ من وصفات الصيادلة والمتطببين؛ حتى عزمتُ على ألا أطرقَ بَعْدُ بابَ طبيبٍ أو حكيم.. فقد اختلفتْ عليَّ النصائحُ والأقوال دون جدوى.. وتضاعفتْ عليَّ الآلام واشتدت البلوى؛ ربما لكثرة المهالِك والمحالك، أو ربما لجهلي بطبيعة المسالك! حتى استفحل دائي، وكدت أيأس من دوائي!.. وإنني أطرق اليوم بابك - يا سيدي - لعلة، ولولا ومضةٌ من شعاع النبي ﷺ ما طرقته!

ذلك أني ذَاتَ أَرَق شديدٍ، قرأتُ في مرويات النور، من هدي النبي ﷺ: « **تَدَاوَوْا!.. فَإِنَّ اللَّه ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً!** »[1] فهل لي عندك - سيدي - من دواءٍ شَافٍ، أو بَيَانٍ كَافٍ؟

قلت: أما أنا يا صاح فعبدٌ فقيرٌ خاوي الجراب! ليس في صيدليتي غَيْرُ سَجَّادَةٍ بَالِيَةٍ، وَمَاءٍ وتُرَاب..! لكنني أسألك أنا أيضًا، فلعلك تجد في سؤالي ما يفتح بصيرتك على طريق الشفاء بإذن اللَّه.. فأخبرني:

هل دخلتَ أقواسَ النور مرةً في حياتك؟ هل شَهِدْتَ كوثرَ السلام المتدفقَ

(١) رواه أحمد، والأربعة، وابن حبان، والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وفي تحقيقاته لكتب السنن. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند. وقال: « إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين ».

في ملكوت اللّه؟ هل ذقت من كؤوس التحيات المقدمة في جلسات التكريم؟ وهل سَبَحْتَ في موجة النور الوهاج؛ فرأيت كيف تمتد الأيدي إلى اللّه، مستدرةً ألطاف التجلي، وأمطار الغفران، فإذا بها أجنحة مرسلة في فضاءات الأنس والجمال، وخمائل الرضوان؟

هنا يا صاح! تحت شلالات الصلاة، تستطيع أن تتخلص من أدوائك، وعَبْر بوابتها الخضراء، تستطيع أن تخرج من كهف ذاتك، إلى عالم الخير والجمال، وفضائه الفسيح.. بعيدًا عن شاطئ الصلصال النتن، وكهوف الطين المظلمة!

أنْ تَفْتَحَ محرابَ الصلاة؛ يعني أنك تبحر إلى مقامات النور، تحت أشرعة السلام، عبر رياضة الأنبياء والصديقين.. حيث تفيض الروح ببهائها على سائر أعضاء البدن، فتوقد بين الجوانح قناديل خضراء، تملأ القلب سكينةً ومواجيد، ذات هالات من نور، تسري بك إلى مقام الجوار الأعلى، لدى الملك العظيم.

فانظر إلى أحوال البهجة الربيعية، وهي تميد أنسامًا لطيفة بالغصن السالك إلى اللّه، ركوعًا وسجودًا، حتى إذا كان مقام التجلي الكريم، أومضت بوارق الأنس في الآفاق، وتوهجت القناديل؛ احتفالًا بتدفق شلال الجمال الصافي على الأغصان الساجدة، وتفتحت براعم الخشوع أزهارًا ورياحين.. فإذا الربيعُ عَبَقٌ يملأ الزمان والمكان! فتنهل النفس الكئيبة من جداول الراحة العذبة، ومنابع الرضوان الصافي؛ فرحًا لا تظمأ بعده أبدًا..!

ثم تهب ألطاف السلام الندية:

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته!

وتعود إلى وطن التراب أطهر ما تكون، وأجمل ما تكون، وأقوى على اختراق عاصفات الظلام! فما زال بين جوانحك نور علوي، لا يفتأ يستمد زيتَه من مشكاة اللّه، عند كل مطلع جديد من المطالع الخمسة، في مدار الكوكب الدري!

فهل لك إذن أن تقدح أنوار الفجر بين ضلوعك؟ فتتخلص من أغلال التراب،

وتحلق بأجنحة ملائكية في سماء الروح، إلى حيث كثبان المسك ورمال العنبر تُنبت أعشابًا بريةً، ذات أزهار وأنوار، تغمر القلب بعبير السلام!

فَهُبِّي يا رياحُ على التلال، يبتهج الجمال..!

الصلاة.. هذه الرياضة الفريدة الشاملة، تفتح أشواقك على ملكوت اللّه، وتمد فؤادك بوارد السكينة الرقراق..

فالوريقات التي بين يديك يا صاح رذاذ من كوثر الصلاة الفياض، بأذواق التجليات العذبة، والمواجيد اللذيذة.

فاملأ كأسك بأنداء الجمال.. وذق!

❊ ❊ ❊

الفَصْلُ الأَوَّلُ

- يا أيها الحيران.. هنا الصلاة فادخل!

- حلية الغر المحجلين..

- « والصلاة نور »..

يا أيها الحيران.. هنا الصلاة فادخل!

أي لهيب هذا الذي يحاصرك من كل مكان؟

كل الأزاهير في قبلك تحترق تباعًا، فتذروها الريح دخانًا يشرد في كل اتجاه.. كل الأشياء التي بين يديك، سلاسل تربطك إلى التراب؛ فتثّاقل عن الانطلاق بعيدًا عن معتقلات مملكة الرماد.. أي كون، أم أي سجن؛ هذا الذي ترزح فيه؟ ولا نافذة تنفرج منه إلى السماء..!

ويحك يا صاح! هذه أشياؤك التي تعبدها تلاحقك كل مساء، فتتحطم فوق رأسك، ثم تبيت ليلتَك تئن تحت ركامها!

وتستيقظ صباح كل يوم، لتدور كالآلة في دوامة رتيبة، ترشقك مسامير ذلك الضجيج نفسه، وتخنقك رائحة تلك الملفات نفسها، وتلهب وجهك لفحات الحرائق ذاتها، وتطول آمالك، وتتسع أطماعك، وتمتد عيناك إلى مختلف الأشكال والألوان، ولا تخرج عن نطاق أشيائك، التي لا تعدو أن تكون - في نهاية المطاف - مجرد حفنة من تراب!

وتجري بكل قواك خلف متاعها، تحرق في سبيل امتلاكها كل الطاقات، وقد لا تصل فتشقى، وقد تصل؛ فما أن تضع يدك عليها حتى تصير مغلولة إليها.. فإذا بك - وقد سعيت لتكون مالكًا - تصبح مملوكًا، لا تستطيع الفكاك.. ثم تشقى أيضًا!

كم زَيَّـنَتْ لك الكلمات البراقة في إعلانات الإشهار أن تكون إلهًا، فبنيتَ القصور من حديد وحجر، وأجريتَ من تحتها الأنهار من عرق غير طاهر، فأعجبك أن تكون لها مديرًا، ثم صرت بها أسيرًا!

وكم زَيَّنَتْ لك قصائدُ الحشاشين أن تكون نبيًّا، فبنيتَ القصور من الخيال، وأسستَ مملكة النظر، وصرت توزع الفهوم كما تشاء.. فانطلى دجلك على الناس ردحًا من الزمن، ولكن العواصف لها موعد، فما لبثت مؤسساتك الوهمية أن تبين زيفها، فانهارت هياكلها حطبًا يلهبه غضبُ المستضعفين في كل مكان..!

وجئتَ بعد خريف قاسٍ، عاري الأغصان، تبحث عن دفء الحق في فؤادك، وسكون الاعتراف لذاتك باستحالة تذوق صفاء الحياة، وتدفقها الكوثري من كؤوس التأله الحديدية، مهما تعددت أشكالها.

ليس لك الساعة يا صاح، إلا أن تفر من أشيائك وأغلالك، لتنظر إلى نفسك من مرآة هادئة، لا انفطار فيها ولا اعوجاج. فهذا الأذان الصادح في الأفق الجميل، يدعوك لتتطلع ببصرك إلى السماء، وتنصت إلى الكلمات التي تتشكل ومضات مشرقة، تلخص قصة الكون المثير كلها في لحظات!

هذا النور الأزرق القادم من أفق بعيد، يرسم الآن لحظة فاصلة بين الصفاء الصادق والدجل البهيم. فما أن أعلن الكون انبعاث فجر جديد؛ حتى أضاءت صومعةٌ قنديلَها الأخضر، لترسم هالتَها الوضاءةَ صوتًا يتدفق كالشلال الصافي، في شكل دائري، ثم ينطلق نحو كل الجهات..

لعلك لم تصغ يومًا ما - وإن كنت سمعت - إلى هذه الرسالة الكونية الملخصة في كلمات الأذان ..

من أنت؟ بل ما أنت؟ وما حدود آفاقك قبل يومك هذا وبعده؟

وتحاول أن تجيب، وقد تفر إلى أشيائك الطينية مرة أخرى.. لكنك أبدًا لن تفلح في الهروب، ولا نجاة لك إلا في الإقدام؛ لأن الذي تفر منه بركان يتفجر من أغوار ذاتك، فإن يخمد اليوم، فغدًا له موعد جديد مع أذان جديد.

لماذا أنت وحدك تشكل نشازًا في هذا النسق الجميل؟ كل الخطوط في

حدائق قوس قزح تتناسق نبضاتها، عبر اندفاع الموج الراكض، والرياح المشوقة بحنين السكون، في محاريب الجمال..

آه أيها الآسف على أيامه! لولا هذا العمر الذي احترق في عد كؤوس اللذة الكاذبة، ما كنت تعرف لسعات هذا الألم الذي يحاسبك الآن، فكفى أسفًا. إن الندم وحده لا يكفي لتصحيح مسار التاريخ، وافتح بوابة ربيع جديد؛ لترى جمال الخمائل التي حُرِمْتَهَا في زمن التيه، تتشكل دوالي أمل، ومقامات أنس.

هل أنت ترى بأم عينك الأرض وهي تدور؛ ترسم لحظات العمر، وفصوله المختلفة؟ فكم ربيعًا شهدت منها وكم خريفًا؟ ألم تكن الفصول وما كان آدم؟ حقًا: و« **مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ!**»[1].

كانت حشرة تغالب التنفس في يومها الثامن من عمرها، وهي تردد:

سَئِمْتُ تَـكَالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ!

ومتى كان الشعور الزمني لدى الإنسان هو المقياس الحقيقي لمعرفة طول الأعمار وقصرها؟

ويطير الجناح تلو الجناح، وفي كل جدفة تهوي ريشة مع الريح إلى خلف، ويطمع الجناح أن يزيد صُعُدًا.. كلَّا! فما بقي من الريش إلا آحادًا معدودات، لا تكفي إلا لرسم آخر رعشات الخريف!

هل تعرف الآن مكانك الدقيق، في هذه الذرة السابحة في مدارات السماء، بين ملايين الأفلاك والمجرات؟

أيمكنك أن تقف مكانك ولا تتحرك؟ أو بإمكانك أن تعود هاربًا إلى الوراء، نحو بحر لجي من الظلمات؟ وهل ثمة ظلام لا يفضحه الأذان؟

---

(١) رواه مسلم.

الأرض راحلة طوعًا لا كرهًا يا صاح! فاختر منهما ما أنت تشاء.

وتمد بصرك الحائر إلى أفقٍ أبعدَ من مدار النظر، فيما وراء النظر، فماذا رأيت؟

كانت العاصفة أعتى ما تكون، وكان البرد أقرس ما يكون! لحظة واحدة قد تكون كافية لجرفك إلى جحيم الضياع الذي لا ينتهي..!

وتسرع في لهفة المستغيث لتدخل مدارك الهادئ، ثم تحس بالدفء يورق في قلبك جنةً ذاتَ قناديلَ خُضْرٍ، ومصابيحَ تُوقَدُ من زيت مبارك، تمده كلماتُ اللَّه. فتخر إلى الأرض ساجدًا:

الملك للَّه الواحد القهار!

وأخيرًا وجدتَ نفسك.. فاحتضنتَ دقات قلبك التي لم تزل تتلاشى في الظلمات، وتضيع في مجاهيل الخراب، إلى أن انشدَّتْ إلى تيار النور الإلهي، المتدفق من مشكاة الأذان..

كانت كلماته تعمر الكون الرحيب، وكان الصوت يمتد أطول ما يكون؛ حتى إذا أثخن في الآفاق تفتحت الكلماتُ النبوية تبشر بالغفران: « **والمؤذِّنُ يُغْفَرُ له مَدَّ صوته، ويُصَدِّقُهُ من سمعه من رطبٍ ويابس!** » وفي ومضة نبوية أخرى: « **ويَشهد لَه كلُّ رطبٍ ويابس!** »[١]. فتتحرك قلوب الكائنات كلها، وترتفع الأعين والأغصان راجية، تمد أشواقها نحو السماء.. هذه لحظات عروج الأجنحة المثقلة بالتراب؛ بعيدًا عن برك الآثام الآسنة، فأبواب الخير وحدها مفتوحة، في غيبة إبليس المدبر في الظلمات، أوَ ليس « **إذا نودي بالصلاة فُتحت أبوابُ السماء، واستُجيبَ الدعاء ؟** »[٢] فهلمَّ إذن يا صاح! فقد « **أَدْبَر الشيطانُ وله ضُرَاطٌ؛ حتى لا يسمع التأذين!** »[٣] فَرَقًا من كلمات الحق المبين!

---

(١) رواه أحمد، والنسائي. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (١٨٤١). كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) رواه الطيالسي، وأبو يعلى. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم:(٨١٨). وفي السلسلة الصحيحة.

(٣) متفق عليه.

- اللّه أكبر.. اللّه أكبر..!.

- أشهد أن لا إله إلا اللّه.. أشهد أن لا إله إلا اللّه..!

- أشهد أن محمدًا رسول اللّه.. أشهد أن محمدًا رسول اللّه..

- حي على الصلاة.. حي على الصلاة..

- حي على الفلاح.. حي على الفلاح..

- اللّه أكبر.. اللّه أكبر..

- لا إله إلا اللّه..

وتمضي كلماتُ الْحُدَاء تخترق الآفاق، حتى تستحيل أصداءً جميلة، تنبعث من أكباد الجبال، والطير، والشجر، والماء، والهواء.. نسقًا من كل الجواهر، والأشكال، والألوان! ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾[الرعد: ١٣] فيا أيها العقل المحتار بين الحجب والأستار! ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]. أي تناسق هذا بين الأرض والسماء؟! وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟! وأي شذوذ هذا الذي يمارسه الإنسان، في تمزيق وحدة الوجهة نحو الخالق العظيم؟! فلمَ لا يسجد داود لربه في هذا الموكب المتسق التغريد والتجويد؟ ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨] ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] - و﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

فمن ذا قدير على الإخلال بروعة النظام إلا أعمى؟

ها أنتَ إذن تدخل خلوة الإيمان، مفارقًا تيه الوحشة والضياع، ومستقبلًا بوارق من مقام الأنس باللّه.. تُلقي نظرة إلى الوراء، فيهولك ركام الرماد الذي

خَلَّفَتْهُ حرائق الأيام الخوالي! ويملؤك شعور بالخجل والندم.. عجبًا! كيف صنعت ما صنعت تحت سماء اللّه؟

كان النسيم الجميل الذي يهب من الجهة العلوية، يحمل معه رذاذَ مَطرٍ خفيف، فترتعش الأغصان منجذبة إلى شجونها، ثم يفيض الدمع الصامت؛ ليعمر القلب بطعم مقام الخوف والرجاء، عساه يورق ريشًا فَجْرِيَّ اللون؛ فيطير إلى مصاف الأجنحة السبعة.. فمن بينها: « **رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ!** »(١).

هذه يَقَظَةٌ، ولكل يقظة غفوة، أو غفلة، فخذ بأسباب (الإرادة) فإنها مقام الابتداء بلا انتهاء، إلا أن يشاء اللّه، ثم اصحب الكونَ السالك، فلأحواله أمارات الوصول إلى اللّه.. واجْعَلْ أنيسَكَ ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨]. وإذا استوحشتَ من الطريق ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥]. فاربط ثيابَك يا صاح إلى محاريبَ الجمال والجلال.. وذق من كؤوس التعبد ما تبصر به سُبُلَ السلام، وترى صراطها مستقيمًا واضحًا في عصر الظلمات، ثم احذر أن ينحرف بصرك عن مشاهدة النور الفياض من النبع العظيم، ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ها أنت تحس الساعة بالأغصان العارية في ذاتك، تلد براعمها الصغيرة، عساها تنشر أوراقًا خضراء، فيتشكل الجناح المأمول.. وإنك لتكاد أن تطير، لولا ما يثقل ذاكراتك من أوساخ عناكب ماتت، ولم يزل نسجها القديم يلتقط الغبار من هنا وهناك.

ألا مهلًا يا صاحبي..! فلا بد قبل التحليق من المسير.. وإنَّ أُولَى خطوات السير

---

(١) متفق عليه.

أن تغطس في حوض التقرب، تحت شلال التوبة، وإنه لمغتسل بارد وشراب.. فذلك مستشفى الأنبياء والأتقياء.. فتجرد إذن من ذاكرتك السوداء.. وتبرأ مما قبل فجر الربيع!، فمقام الفرحة كفيل بوضعك على أول مدارج التحليق، ذلك نور القَسَم النبوي المشع في فلوات الظلام: « **واللّهِ! لَلّهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم يجد ضَالَّتَهُ بالفلاة!** »[(١)]. ويسترسل سيدي في إضاءة علامات الطريق: « **ومَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا، ومن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه بَاعًا، وإذا أقبل إليَّ يمشي أقبلت إليه أُهَرْوِلُ!** »[(٢)] سبحان اللّه! وأي مشي يمكن للإنسان أن يمارسه إن لم يكن أساس خطواته الخضوع لسيد الكون؟! وأي خضوع يمكن أن يكون إن لم يكن في تسابيح الصلاة؟! وما جريمة هذا الخلق إن لم تكن إضاعة هذا المعنى العظيم، الذي سكن رُوحَ الأمة منذ مئات السنين! ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

فأي شيطان هذا الذي غَلّقَ بوابات المساجد دون التوابين والمتطهرين؟ !فانطلقت حوافر الفحشاء تركض في الأرض ركضًا!

ألا هذا لجام التعبد يُرَوِّضُ حافر المنكر، كي يركب مداره طوعًا، فاخلع نعليك يا صاحبي وادخل! ثم: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

***

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

حلية الغر المحجلين

هذه النافورة الرخامية البيضاء، التي يؤمها الناس في فناء المسجد، بقلوب يملؤها الشوق إلى حوض رسول اللّه ﷺ، تعرض على المؤمنين حليًّا من النور البهي، فيتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ثم رؤوسهم، فأرجلهم إلى الكعبين.. و« **تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء** »[١]. ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة، إذ « **لاَ تُقْبَلُ صلاةٌ بغير طُهُورٍ** »[٢].

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء، يَرِدُونَ من بعد عطش شديد، ويغسلون أنفسهم مما أصابها من دخان المال والأعمال.. ثم تمتد الأيدي خاشعة ذاكرة، يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان، طُهُورًا جميلًا، ينقلهم مباشرة إلى مناجاة الرحمن.. وكيف لا؟ وهَا « **الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان** »[٣] تلك كلمة سر مودعة في كتاب الاستئذان، من حديثك يا رسول اللّه!

وتدور الفصول ما بين حَرٍّ وقَرٍّ.. فيبقى الوضوءُ سِرًّا من أسرار الجمال، الذي ينسخ نُورُهُ آثار معركة الحياة، ويضمد جراح الروح، وما خلَّفته سهامُ إبليس ورشقاته اللعينة.

كانت كلمات النبوة بَلْسَمًا، يوضع على الجروح فتشفى بإذن اللّه.. فها أنا ذا حبيبي

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.

أرتحل إليك، مخترقًا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذًا من الغيث الذي أصاب الصحابة الكرام.. فجنبات المعمور ما زالت تردد أصداء الحداء النبوي الجميل:

« أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ ».

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه!

قَالَ:« إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاة، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ!»(١).

والمكاره شتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي اللَّه! فهذا قُرُّ الشتاء أصبح اليوم خنقًا، بتوقيت تعده علينا ساعات الدرهم والوظيفة! ووثنيةً تفرضها أغلال الحلاقة واللباس! و(...) وأشياء أخرى من تقيين النساء، أكرمك عن ذكرها يا حبيب اللَّه! ما سَلِمَتْ منها عينٌ، ولا خد، ولا يد، ولا رجل! فبأي حميء آسنٍ امتلأت برَكُ هذا العصر الغريب؟!

ألا هونًا عليك يا صاح! فما في الدنيا وَسَخٌ أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور! لكنما التحلي مقامٌ ينبئ عن تمام التخلي! فهلم إذن، وأتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق! أوَليس **« إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَو الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ؛ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ، مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ! فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ؛ خَرَجَ مِنْ يَدَيْه كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ، مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ! فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ، خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ، مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ؛ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِن الذُّنُوبِ »**؟(٢).

- بلَى يا رسول اللَّه!

فما أبطأ بك إذن يا صاح..؟ هذه جموع المؤمنين سارعت إلى لقاء رسول اللَّه بيوم القيامة، يَرِدُونَ حوضَه الكريم بأوسمتهم النورانية..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

كانت الخيل وهي مقبلة فأل خير، ترفع غُرَرَها البيضاء نحو سماء الانتصار، ولقوائمها الْمُحَجَّلَةِ - وهي تباري الأسنة راكضة - جمالٌ لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئةً بين يدي رسول اللَّه ﷺ، تلقى التحية، وتسلم له الغنيمة.

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء! فإنكم « **أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ! فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ!** »[1] تلك سِيَمُ الجمال في وجوهكم، وأطرافكم، يوم تَرِدُونَ على المصطفى ﷺ. وهي سِيَمٌ « **ليستْ لأحَدٍ من الأمَمِ!** »[2] بها تُعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دلجة الفضاء!.. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين السُّجَّدِ، رَشْحًا لا يذبل وميضُه أبدًا؛ فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدًا واحدًا:

« **مَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَحَدٍ إِلا وَأَنَا أَعْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »!

قَالُوا: وَكَيْفَ تَعْرِفُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَثْرَةِ الْخَلَائِقِ؟

قَالَ: « **أَرَأَيْتَ لَوْ دَخَلْتَ صُبْرَةً فِيهَا خَيْلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ، وَفِيهَا فَرَسٌ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ، أَمَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْهَا؟** ».

قَالوا: بَلَى!

قَالَ: « **فَإِن أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ، مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ!** »[3].

وتركض الخيلُ المتوضئةُ ضَابِحَةً نحو الجنة، ولم يزل ماء الطهور يقطر من أعرافها وغررها البهية. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. وأبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ منازلُ

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٥٨). وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ». ومعنى الصُّبْرَة: مَحْجَرُ البهائم، أو الإسطبل. والغُرَّةُ: بياض في جبين الفرس. والتحجيل: بياض في أسفل قوائمه، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الفرس أسود، أو أحمر، أو كُمَيْتًا.

ودرجاتٌ، تُفتح لأصحابها على قدر مراتبهم، كل باب له أهله المختصون به، يدخلون منه لا من سواه. لكن المتوضئين - من أهل الإِسْبَاغِ خاصة - الذاكرين اللَّه عند كل وضوء، لهم كل المنازل ولهم كل الدرجات! فإذا ما وَرَدَتْ زُمْرَتُهُمْ فُـتِّحَتْ لهم جميعُ الأبواب، ونادتهم الملائكة من مشارق الجنة الثمانية، فيدخلون كرامًا من حيث يشاؤون.. فأبشروا أيها المتوضئون إسباغًا على التمام والكمال! أبشروا فإن موعدكم الجنة! واحفظوا ذِكْرَ الوضوء عن رسول اللَّه ﷺ؛ فإنه إِذْنُ الدخول في زمرة الأبواب المفتوحة! قال البشير ﷺ: « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأ فَيُسْبغُ الوُضُوءَ، ثُمَّ يقول: أشهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ إِلا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ!** »[١]. وفي إشراقةٍ نبويةٍ أخرى، زيادةُ شعاع حَسَنٍ، هي قوله ﷺ بَعْدُ مباشرةً: « **اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ!** »[٢].

فليس عجبًا إذن أن جعل اللَّه ﷻ هذه الْحِلْيَةَ الكريمةَ جوهرةً من جواهر القرآن المجيد، جوهرةً مكنونةً في مَكَانِزِهِ، محفوظةً في مخازنه، مذ أنزلها سبحانه من فوق سبع سماوات، محفوفةً بأجنحةٍ من نور، حتى أَوْدَعَهَا في كتابه الكريم. فلم يزل شعاعها الرباني ينادي: أنْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ [المائدة: ٦].

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى اللَّه، وفي الماء سقاء لدالية الشعور بالرضى الرباني، وإشارةُ القَبُولِ للمثول أمام جلال اللَّه.. ألا ما أعمق الفرق في الغصن الواحد بين زمانين!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب.

الأول: سنوات عجاف، لا نضرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل، إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح اللاهب!

والثاني: عامٌ فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فإذا الأشجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجوه ما تزال ترشح بماء الطهور!

* * *

« وَالصَّلاةُ نُـورٌ..! » (١)

كانت كلمات الإقامة إشعارًا ثانيًا – بعد الأذان – بضرورة نفض كل ما بقي من علائق التراب، قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلى مقام المحبة:

– قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة!

وترتفع الأيدي الْمَحَجَّلَةُ تجاه القبلة بتكبيرة الإحرام؛ لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر الْمُرْفَق بالشوق إلى الغنى الحميد، ثم تتأدب بالتزام الصدر، في وقفة العبد بين يديَ الملك العظيم، تأسيًا بجمال الامتثال في قيام النبي ﷺ، وقد كان في وقوفه بين يدي اللّه تعالى « **يَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى كَفِّه الْيُسْرَى وَالرُّسْغِ وَالسَّاعِدِ** »(٢)، أي أنه: « **يَضَعُ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ يَشُدُّ بَيْنَهُمَا عَلَى صَدْرِهِ، وَهُوَ فِي الصَّلاة** »(٣).. ثم تشرق التجليات..!

والقبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة والسكينة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البسيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لجي من الكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يستعصي حتى على

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، وابن خزيمة، وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص٧٩)، وفي الإرواء. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٣) رواه أبو داود مرسلًا صحيحًا، وله شواهد موصولة عند ابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي في الكبرى، وصححه الألباني في الإرواء، وفي صفة الصلاة: (ص ٧٩).

مجرد التصور الشامل والاستحضار الكلي! كيف لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة، مع رب هذه العوالم، المحيط بجميع هذه المخلوقات؟!

فلتكن القبلة إذن قنديلًا آخر في طريق التعبد يجمع المصلين في العالم أجمع، على قلب واحد، ينبض بتوحيد اللّه ذي الجلال، ويبعث من مكة المكرمة أنوارًا، تتلقاها أفئدة العابدين في كل مكان، أن هلموا إلى ههنا، فهذا بيت اللّه الذي هو أول بيت وُضِعَ للناس، فتحج الأرواح من محاربيها خمسَ مرات في اليوم.

ألا ما أجمَل سعف النخيل وهو يُلَمِّعُ خضرته الزاهية، بعد رذاذ مطر خفيف! وما أبهى جماله إذ يستجيب لنسيم لطيف؛ فيميل موليًا وجهه شطر المسجد الحرام!

كل شيء يتلاشى الساعةَ خلفك، فلا فكر يقدر أن يتخلف لحظةً عن مقام النور المتجلي للمخبتين الْخُشَّعِ.. كانت المشكاة ترسل نورَسا الدري، وكانت القلوب تتوق إلى التعلق بأستار الكعبة، ثم تتجلى عظمة اللّه للخوافق؛ فترتعش الأجنحة خوفًا ورجاءً، ثم يَأْذَنُ الإمام بتكبيرة الإحرام، معلنًا بذلك قطيعة مع عالم الرغام والأوهام.

- اللّه أكبر!

كان سيف النور قد قطع الزمان نصفين: الأول إلى خلف، فما زال راكضًا في تغيره يذوب فناء، بذوبان الأشكال والألوان المتهاوية تترى، ثم يذوي في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين! ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والثاني إلى أمام، فما يزال متوجهًا إلى مقام البقاء، ليس يفنى! فالنور المتجلي على الغُرَرِ البهية، مستمَد من معين لا ينضب. والعبادة لحظة تستمد خلودها من مناجاةَ الحي الذي لا يموت، فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حَرَمًا آمنًا، لا يناله أثر الزمان؛ لترسم بعد ذلك نعيمًا سرمديًا على جبين صاحبها، وتنير روحَه بقناديل تستمد زيتَها الوضاءَ من مشكاة اللّه.. ويُتَخَطَّفُ السعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب!

كان الوارد نورًا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخر، فإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوق!

أنت الآن أمام جلال اللَّه، تقدم إيمانك إخباتًا بين يديه تعالى، والقلب مفتوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورًا، وقد تنتابك أدخنة الطين رياءً ونفاقًا، ما بين الذرة وأقل، فتفر إلى ربك مذعورًا.. وتناجيه حزينًا أنْ أبرئني منِّي يا سيد هذي الأوراد!

- أولستَ تصلي؟.. و« **إنَّ أحدكم إذا صلى يناجي ربه!** »[(١)].

عجبًا! فأي قوة ما زالتْ تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفًا أمام عظمة اللَّه الواحد القهار؟.. كيف والجبل قد اندكَّ وراءك من خشية اللَّه؟

فَأنْ تصلي: يعني أنك تقابل ربَّك غصنًا منفوض الأوراق! فأنت كما أنت، لا تخفى منك خفقةُ قلب واحدةٌ؛ سواءٌ صَفَتْ أم خالطَ دمعتَها ريحُ الحمأ المسنون! و« **إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن اللَّه قِبَلَ وجهه!** »[(٢)] واللَّهُ قبل ذلك وبعده ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. فكيف يمكن لهذا البصر الحسير أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والرب بجلاله قِبَلَهُ؟ إذن تندك ضلوعه! فيخر القلب صَعقًا، ولا يبصر شيئًا بعدها أبدًا! كان التحذير النبوي حريصًا على إلزام المحبين بآداب المحبة؛ حتى لا تستحيل حديقة النور بين أيديهم إلى ظلام دامس، وحريق يأتي على كل أخضر ويابس! قال عليه الصلاة والسلام: « **مَا بَالُ أَقْوَام يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاء فِي صَلَاتِهِمْ؟لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ!** »[(٣)] وأما التفاتٌ عن يمين أَو شمال؛ فَهو « **اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد!** »[(٤)] وأنى لعبد في مقام الخشوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال، وتَمَلِّيه بقلب ملؤه التقوى والورع؟ وأنى لعبد في مقام الخضوع أن ينصرف عن تذوق كؤوس الترتيل، الطافحة بشهود الفلاح؟ وكيف لا؟ وهَا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

يا لآيات البهاء تنطلق كلماتها من ألسنة رطبة بذكر اللَّه..! مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها!

- قالوا: يا رسول اللَّه! « وكيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها »؟

- قال: « **يُتِمُّونَ الصفوفَ الأوَلَ، ويَتَرَاصُّونَ في الصف!** »(١).

ألا صلى اللَّه عليك يا رسول اللَّه! أَصَفٌّ في الأرض وصَفٌّ في السماء؟ والصلاةُ جامعة؟! هكذا إذن تَخِفُّ الأجنحةُ المثقلة بأحزانها، وتنطلق الأسراب محلقة؛ لمزاحمة الملائكة في مدار النور، عند أبواب ملك الكون الظاهر والباطن.

ألا ما أشقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات..! لا يفتأ يلهث راكضًا خلف سراب مال متسخ، حتى يتسخ وَبَرُهُ، وتنتن رائحته؛ فيرين على قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، فيضل لاهثًا وراء رمال العصيان، حتى يموت عطشًا دون ظل المورد العذب الجميل! وما بينه وبين استحالة الموت ميلادًا إلا أن يركع لمالك خزائن القَطْرِ؛ فإذا القفر القاتل حواليه حدائقُ ذات بهجة، ترشح غصونها بأنداء الطهور، نورًا يصفيه من جميع الخطايا والأدران.

كان البهاء يحيط الحبيب المصطفى ﷺ، وهو في هالة صافية من أصحابه الكرام، إذ قال:

- « **أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنه شيء؟** ».

- قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء.

- قال: **فكذلك مَثَلُ الصلوات الخمس، يمحو اللَّه بهن الخطايا!**»(٢).

ويوقد الحبيب ﷺ قنديلًا آخر فيقول:

«**مَا أَدْرِي أَحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ أَوْ أَسْكُتُ؟**

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَحَدِّثْنَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

قَالَ: « **مَا مِنْ مُسْلِم يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؛ إِلا كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا!** »(١). وفي ومضة قنديل آخر قال: « **وذلكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ!** »(٢).

هذا الْمَسْرَى الربيعي إلى اللَّه، رَغَبًا في ينابيع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه، أقواسًا من الدوالي المورقة، فتتشكل العناقيد قناديل خضراء، ترسم خطوات النور الهادي إلى الرحمن، فتختزل العدد والزمان، إذ بكل خطوة عشر خطوات في طريـق اللَّه، فقد فرض اللَّه على نبيه ﷺ في السماء السابعة، وبغير واسطة الملاك جبريل عليه السلام خمسين صلاة في كل يوم وليلة! ثم اختزلها سبحانه رحمةً منه في خمس، ثم قال في الحديث القدسي: « **يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً!** »(٣).

أي فريضة هذه التي هي فضل كلها، ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟ وإنَّ عبادة فُرضت في السماء، بغير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صُعُدًا بعشاقها إلى منازل السماء!

فاصطبري يا أبْدَانُ على إدامة التطهر بنهر النور! فإن غصنًا ينبت في جوار الغدير لا يجف أبدًا! إن لم ينل من فيضه نال من طَلِّه، وإن لم يَرِدْ من ربيعه وَرَدَ من نَداه.. فلم يزل الأمل يسري نضرةً وجمالًا في قَدِّه المياد ركوعًا وسجودًا!

لكنْ لإبليس كَرَّاتٌ في الفترات، يزيدها خرقًا واتساعًا، فلا « الإرادةُ »، ولا « التوبة » غير النصوح؛ يكفي مقامهما لاقتحام المفازات، والنجاة بهذا الغصن الندي، كلَّا! حتى يصل إلى « مقام المحبة »، وهو ما يزال يحتفظ بطرواته ونداه! وللطريق مكاره لا يطفئ لهيبَها الشيطانيَّ إلا وَابِلُ الصبر العظيم، فذلك مقام أولي العزم من الرسل والصالحين.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فانثر روحَك يا صاح غيثًا من مُزْنِ الصبر، تنبتْ فتراتُك جنات ذات أنس وظلال، وتَزدْكَ حبًّا وخشوعًا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ثم وَسِّعْ دائرة النور حواليك؛ حتى تضمن ابتعاد الظلام. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] فالاصطبار رشح من أنداء شجرة الفقر الدائم إلى اللَّه، ترفعُ أفنانها دومًا إلى السماء، ترجو نوالًا من فيض الرحمن الواسع الكريم، فذلك مغتسل الأوابين والمتطهرين: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١، ٤٢].

كؤوس الرحمة، ونور التأييد، وفواكه الرضى، وجلابيب القبول، ومقامات النصر، كلها.. كلها من ظلال الاصطبار على مدافعة مكاره الشيطان. فما فتئ أيوب عليه السلام يفتتح أقواس الصلاة، صابرًا، أوَّابًا ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فيا صاح، هذه طريقك السالكة إلى اللَّه، اختصَرها لكَ النبيُّ المعلمُ ﷺ في كلمات: استقامةٌ على الصلاح، ولا صلاح إلا بمقاطعة المنكرات، ثم دَوَامٌ على الصلوات وفعل الخيرات، والوضوءُ الدائم لهن عصمةٌ وسلاح، يحفظ المؤمن من شِرَاكِ الشيطان ومكائده، فهما في نهاية المطاف أمران: استقامةٌ وصلاة. ذلك بيانه النبوي الكريم المختصَر: « **اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا..! وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةُ! وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الوُضُوءِ إلا مُؤْمِنٌ!** »(١)

ألا ما أكْرَمَ بُشْرَاكَ يا سيدي يا رسول اللَّه..! وإنَّ حَدِيثَكَ لحقيقٌ بأنْ تُشَدَّ إليه الرحال!

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه بإسناد صحيح، والدارمي، والبيهقي، والحاكم، وقال: « صحيح على شرطهما » ووافقه الذهبي. ورواه ابن ماجه والبزار عن ابن عمرو وأبي أمامة أيضًا، كما رواه الطبراني عن سلمة بن الأكوع. قال ابن عبد البر: « وهذا الحديث يتصل مسندًا عن النبي ﷺ من حديث ثوبان وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص » (التمهيد: ٢٤/ ٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة، وإرواء الغليل، وصحيح سنن ابن ماجه. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « حديث صحيح، إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح ».

الفَصِلُ الثَّانِي

- هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!
- في ملكوت الله

هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!

وفاتحة القرآن إبحار في مقام التجريد والتفريد، تضع عنك أشكال البهتان، وألوان الكذب، وتذوب أغلفة الأوهام، وتَمَّحي الأماني المستحيلة في نظرة الحق إلى ذاتك.. أنت الآن واقف تستفتح سفارك، تقدح تغريد الصلاة.. أنت الآن كما أنت.. أنت الآن أفقر ما تكون، وأطهر ما تكون، فقد نَفَضْتَ يدَك - في تكبيرة الإحرام - من كل الأثقال التي حملتها؛ مالًا وولدًا، ومَنْصبًا ولقبًا، فإنما الملك للّه الواحد القهار، وإنما أنت طيف عابر في مَدارٍ عابرٍ.. وترتفع الأيدي كأعراف الخيل إلى أعلى، معتصمة بلحظات الخلود:

اللّه أكبر..! وينطلق الترتيل شجيًّا..

ها أنت الآن تحس بيقظة الروح، حياةً كريمة بين يدي اللّه رب العالمين.. فأعْظِمْ بها من نعمة وأكْرِمْ! إذ كيف لذرة غابرة في ضخامة هذا الكون الممتد في المجهول، وسَعَتِهِ الرهيبة، أن تحظى بالقرب ممن وَسِعَتْ قدرتُه وعظمتُه شَسَاعَةَ هذا الملكوت وضخامتَه، وأحاط به خَلْقًا وتقديرًا، وعلْمًا وتدبيرًا، لولا أن رحمته تعالى وسعت ما وسعت قدرتُه جل جلاله؛ فكانَ أقرب إلى عباده المؤمنين! ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ليس لهذه النفس المطمئنة الساعةَ، إلا أن ترسل عبَرات الفرح باللّه، فتمد أغصانها المورقة، حمدًا، وثنًاء، وتمجيدًا، وتفويضًا، مستزيدةً أنوارَ التجلي من كرم اللّه:

- ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]: إعلام بشعور النفس الواقفة بمحراب الصلاة - على باب الرحمن - بأن كمال الحمد إنما هو لسيد هذه العوالم جميعا، تجريدًا لسواه تعالى عن كل ملكية، ولأي منة أو منحة أو عطاء! وتفريدًا له - وهو سيد المخلوقات في كل العالمين - بوحدانية الألوهية والربوبية، وما تقتضيه من كرم فياض ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] فمن ذا يستحق الحمد دونه تعالى؟!

ألا الحمد كل الحمد للَّه رب العالمين!

كانت الكلمات - وهي من اللَّه نزلت - تفيض من قلب العبد ريانة بشعوره الغَيْدَاقِ، الْمَشُوقِ برضى سيده الكريم.. فيتلقاها سبحانه بالقبول، وتنفتح ورودُها سرورًا بين ضلوع العبد، وهو يشعر بجواب سيده، يتنـزل عليه أندى، وأكرم، وألطف، وأحلم.. هاهنا مقام المناجاة.. هاهنا تقف الذات المستعيذة باللَّه، محتمية بجوار اللَّه، وهي ترتل مواجيد ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾. فيجيبها بإلقاء نور السلام على غصنها المسكون بالخفقان، وهو ينعطف إلى الثرى مضطربَ الأوراق، ما بين خوف ورجاء.. فإذا الطمأنينة تنفتح أمامها سهولَ إخبات فسيحة، ينال العبد فيها من نعم اللَّه ما يشاء..

كان الشعاع الأخضر القادم من المقام النبوي يُلقي إلى النفس تفاصيل المناجاة:

- « **قال اللَّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل:**

- **فإذا قال العبد:** ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

- **قال اللَّه تعالى: حمدني عبدي!**

- وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

- **قال اللَّه تعالى: أثنى عليَّ عبدي!**

- **وإذا قال:** ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾
- **قال: مَجَّدَنِي عبدي!**
- **فإذا قال:** ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾
- **قال: هذا بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل!**
- **فإذا قال:** ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾
- **قال: هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!** »[١].

فأي كرم هذا، وأي نعماء؟

سورة الفاتحة في غير الصلاة، تفتح للقارئ نافذة علم، إذ تُلخص له قصة الإسلام كلها، عقيدة وشريعة، والمفسر يكتسب بها مقام علم رفيع، وأما الفاتحة داخل محراب الصلاة، فهي تفتح للعابد أقواسًا من نور، لمشاهدة جمال العلم بالإسلام من داخل قباب التعبد، فالعبد يقرأ بين يدي سيده مناجيًا، وشهود الحي القيوم حَيٌّ بقلبه!!

أنت تقرأ؛ فأنت إذن ترحل متجردًا من أثقال الطين، إلى حيث تذوق لذة التعبد في حضرة المعبود، فتشعر أن الحال غير الحال، وأن وهج النور أقوى من أن يبصره بصر، ثم تمد قدح القلب؛ لتنال من رحمة اللّه مرتلًا:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. وإنك لتكاد تعطف هذا الغصن، المتجرد في حضرة سيده، لولا أن المقام لما يحن بعد! ويزداد شوقك إلى موضع سجودك، فترمقه بعينين خاشعتين.. وكان الحبيب ﷺ إذا صلى طأطأ رأسه، ورمى ببصره نحو الأرض![٢].

وما زال نور الحمد يسري في الفؤاد شوقًا ومحبةً، فتحمده تعالى؛ تعظيمًا لألوهيته وربوبيته، وثناءً على رحمته...

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي، والحاكم وصححه. قال الألباني: « وهو كما قال » صفة الصلاة: (ص ٨٠).

ثم رشفة أخرى من نور السورة؛ فإذا بقلبك ينفتح للنظر إلى جلال عدل اللَّه، المنبثق من نور رحمته، فتتوجه إليه سبحانه تمجيدًا لمالكيته، وتفويضًا لكل أثقالك إلى جمال حكمه.. فتسري السورة في أشواقك موجةً أخرى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾! وتتلقى مُهْجَتُكَ حالَ أنْسٍ كريم، ثم ترتقي في مقامات المعرفة باللَّه! أوَليس ذلك يوم الدين؟! أوَليس هو اليوم الحق، الذي تتبخر عند حافته أزمنة الغرور والأوهام؟!

فما مُلْكُ ملوكِ الأحلام، إذا استيقظوا على حقيقة اليوم الحق، وهم ماثلون أمام الملك الحق؟ تلك الصورة يتذوقها العبد، وهو يرشف – في صلاته – من فاتحة الكتاب، فيحس برهبة ذلك اليوم، الذي يعتلي فيه الرحمن عرش القضاء بين عباده، فتنبت مشاعر الحاجة الملحة إلى الاستزادة من رحمته تعالى؛ رَهَبًا ورَغَبًا؛ واتقاءً لحرج يوم الحساب، الذي لا تُغَادَرُ فيه صغيرة، ولا كبيرة؛ إلا أن يعفو اللَّه، ويشعر المؤمن بضرورة العودة إلى ذاته قصد تمحيصها، وإنَّ أول ما يمحصه منها هذا الذي هو فيه الآن: صلاته القائمة، فليمعن في تجريد أعماقه من دسائس إبليس، ولْيُصَفِّ خواطره منها مهما دقت، تفريدًا لوجه اللَّه المقصود وحده بالتعبد والاستعانة.. حتى إذا كان من مشاهداته ما كان؛ فاضت الكلماتُ من قرارٍ وَجِلٍ حزين؛ ألّا يكون المقالُ على وزن الفعال، ثم ترسل الحنجرة تغريدها الشجي: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾!

فيقول مولاك: « **هذا بيني وبين عبدي!** »(١)

آهٍ منك يا نفس! أيُّ حق عليك للَّه ﷻ! وأيُّ تَبِعَةٍ! وها أنت شاردة في متاهات اللهو، تبنين قصور الوهم في دار الخراب!

– ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. ذلك بينك يا عبدُ وبين العليم الخبير! فهو بعلمه سبحانه سيتولى تمحيصه في القلوب والجوارح.. !فيا أيتها الأغصان

---

(١) تقدم تخريجه.

العابثة بين ربيع وخريف، تبيحين نداك لكل ريح.. هذه الشمس تكاد تأتي على امتصاص كل أنداء الحياة! فإذا نضارة العود الطافح أوراقًا وأزهارًا، تستحيل حطبًا، وخشبًا مَنْخُورًا، يتحطم وَهْنًا على أعتاب الآخرة! فأين أنتِ مِنْ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؟!

كان الحزن الصاعد من الأعماق يتشكل في أفق المحراب بارقةً، تضطرب بين جَنَاحَيْ قلب السالك، وتَعْرُجُ في خفقان يحدوه مقام الخوف والرجاء، فترتفع الأشواق إلى بارئها؛ مستغيثةً وملبية، تلهج بمعاني الحمد والثناء،كما ينبغي لجلال وجه اللّه وعظيم سلطانه.. ثم تنفلق الظلمات بومضة برق حاسمة، فيشتعل الخوف بغصونك اشتعالًا، يكاد يحرق ما بقي بأندائها من رجاء! فتتعلق بأعمدة النور العلوي، و... وتبكـي.. مناديـًا: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .وتنهمر الأمطار!

ها هو الشاطئ الآن أجمل ما يكون! وها هو ذا أنت أسقم ما تكون! تمد يدك إلى شجر اليقطين، تضمد به جروحك وتستر ضعفك، ثم تتقدم هونًا في الطريق، وقد أورق رجاؤك ألطافًا من رَوْحِ اللّه، واشتد عطشك إلى نور الهدى، مددًا يروي جواك في طريق اللّه؛ فناجيتَ مولاك خاشعًا، راسمًا مبتغاك، وأنت تشاهد نفسك ذَرَّةً، تستشرف طريق النور، في قصة الإنسان مع الدين:

- ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين!

فالهدى هو النور العاصم من الشرود في التيه؛ الواقي من الانحراف الضارب بعيدًا عن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾. فأهل العبادة والاستعانة باللّه هم المنعم عليهم دون سواهم، وهم الذينَ شاهدوا شعاع النور فالتزموه، وساروا على هداه.. وتلك أهم النعم، وذاك هو الصراط المستقيم، الذي زاغ عنه من عرف الحق وعمل بخلافه عُلُوًّا واستكبارًا؛ فغضب اللّه عليه، ومن جهل الحق ولم يهتد إليه؛ بما غلب عليه من هوى؛ فضل ضلالًا بعيدًا.

كانت الفاتحة نقلة روحية كبرى، ارتقت بك من مقام إلى مقام، عروجًا مما يلي أبواب عالم الدخن والفناء، إلى ما يلي أبواب عالم الصفاء والبقاء.

وتشعر بجمال اللحظة، إذ تجد في كلماتها من معاني الخلود ما تجد، ويَقْوَى رجاؤك في اللَّه أن يصفي دمعَك من رائحة الطين! أتدري ما صفاء الدمع من رائحة الطين؟ ذلك حين تشف هذه الضلوع الصلبة عن يقين الوجدان الفوار بقلبك، ويترقرق الغدير في بطحاء الحب، فترى لآلئَه الجميلة صافية الأديم، لا تُضام في رؤيتها شيئًا؛ فلا تبصر بعد ذلك إلا باللَّه..! حين ذاك يصدق في حقك الوعد الكريم: « **هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!** »[1].

ألا ما أعظمه من دعاء! وما أكرمه من عطاء..!

كانت نهاية السورة تنفتح شعورًا قويًّا في القلب، ورغبةً مُلحة في الدعاء، فتفيض أنوار الهدى النبوي مبشرة بخاتمة من أمل أخضر، يمتد صداه امتداد النفَس الولهان، فإذا « التأمين » قنديل آخر، يجمع خفقات المحبين ما بين السماء والأرض!

ألا تنظر إلى حلقة النور من الصحابة الكرام وهي تشكل هالةَ إصغاء كامل، والحبيب محمد ﷺ بينهم يوقد ألوان القناديل؟

- « **إذا أمَّنَ الإِمَامُ فأمِّنُوا..! فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه!** »[2].

سادتي.. صلوا على محمد!

ألا صلى اللَّه عليك وسلم يا سيدي يا رسول اللَّه!

***

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) متفق عليه.

في ملكوت الله

كان القرآن؛ فكانت الصلاة.. وكانت سورة الفاتحة هي الصلاة[١] و« **لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب!** »[٢]. و« **ما أنزل اللَّه ﷻ في التوراة، ولا في الإنجيل مثل أم القرآن!** »[٣]. لكن مقام الوقت يدعوك الساعة يا صاح؛ للسياحة في ملكوت اللَّه، بُعَيْدَ التأمين على دعاء فاتحة الكتاب، فافتح أبواب القرآن الكريم واقرأ!

ألا يا أيها الجناح الضارب في سفارك إلى الحبيب، تجتاز آفاق الآكام والوديان، هذا مقام الأنس؛ فافتح تباريح المحبة بُعَيْدَ فاتحة الكتاب! تنقلك موجة نور إلى بحار اللَّه، وما أدراك ما بحار اللَّه؟ إنها الجمال ذو الجلال المطلق، أو قل: إنها الجلال ذو الجمال المطلق..! إنها تجليات من نور اللَّه، تفيض أمواجها أبدًا، من بحار كلمات اللَّه! ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]. ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. فَتَمَلَّ جمالَ النور العظيم! إذ يرسم الحرفُ القرآني في النفس شعاعًا لا يصطدم بساحل، فترى أن العمر - كل العمر - لا يكفيك ولا لتذوق كأس واحدة من بحر عطاء اللَّه العذب الكريم!

---

(١) تأمل الحديث المذكور « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... ».

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (صفة): (ص ٩٢). كما صححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٥٥٦٠).

كانت أصداء التأمين ما تزال تتجاوب مع أصداء السماء.. وكان فؤادك ما يزال يخفق إجلالًا لجمال اللَّه.. هذا مقام الغنى العالي، فآيات الفاتحة السبع كانت كافية لمحو كل آثار الطين من ذاكرتك، ثم لعمران القلب كل القلب بحب اللَّه! فلكؤوس السبع المثاني طَفْحٌ يملأ الجوانح؛ شوقا إلى عبور مقام الإذن، والتملي بملكوت اللَّه.. فيا صاح، افتح حدائق القرآن العظيم؛ تنل مزيدًا من عطاء اللَّه! ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]. فكل متع السراب سراب!

ألا ما أفقرك أيتها العير المحملة بالمال، تسعين ذلولا في ركب السلطان؛ لبناء المجد الفان! فاستزد يا صاح غنى من رَوْحِ الله! تشتعل الآيات في دربك قناديلَ مزهرة أبدًا حتى تلقى مولاك! ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩].

بين الفاتحة وبين قراءة ما تيسر من الآيات - قيامًا بين يدي اللَّه - بَرْزَخُ شَوْق ينتفض رغبةً في الارتقاء إلى مقام الجوار الأعلى! أوَ ليس « **يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ ورَتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا! فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها!** »؟[١] رَتِّلْ إذن، لا هَذًّا ولا عجلةً، بل « **قراءةً مفسَّرةً حرفًا حرفًا!** »[٢] حتى تتذوق رشفات النور، وتستطيع تلبية عزائم السير في طريق المجاهَدات، ضربًا إلى بحار المحبة، فإن الخطب جليل وثقيل، فانشر شراع التلقي يا صاح! ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٤، ٥].

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». وصححه الألباني في تحقيقه لسننيهما، وفي صفة الصلاة: (ص ١٢٦)، والسلسلة الصحيحة.

(٢) ذلك وصف أم سلمة رضي الله عنها لقراءة النبي ﷺ وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والحاكم، والطبراني في الكبير، وابن خزيمة في صحيحه. كلهم عن أم سلمة رضي الله عنها. وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ». وقال الحاكم: « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ». ثم صححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٢٥)، وفي مشكاة المصابيح، لكنه ضعفه في تعليقه على السنن. كما ضعفه الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

كانت أقواس النور تمر بين يديك هادئة وضَّاءة، فتلج منها إلى عوالم متعددة؛ تختزل بذلك أمكنة وأزمنة شتى، وتنظر بقلب ملؤه الرهبة إلى اللامكان واللازمان! متعلقًا بأنوار الأسماء الحسنى، فيزداد حسن الترتيل بمزمارك، وجمال الخشوع بخمائلك، إشراقًا وبهاءً! فاخشعي يا حناجر الطير الشجية، وتبتلي مثولًا عند أبواب الكمال، فإنَّ « **مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ: الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ!** »(١).

هذه قناديل القرآن الأولى، تسكب بين ضلوعك لطائف العلم، فتزداد معرفة باللّه؛ حتى تتحقق بمقام التوحيد ربوبيةً وألوهيةً؛ أما الربوبية فتنشر عليك ظلال الخضوع التام لسيد الكون، فتتملى جمال الخالق في أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويتجلى لك نور الهدى في تنـزيه مولاك، تنـزيهًا يقوم على إثبات صفات الكمال، ونفي التشبيه والمثال، وأما الألوهية فتدعوك إلى تخليص مشاعرك - وأنت تخطو في درب التعبد بالأقوال والأفعال - من كل قصد سوى اللّه، حتى تشهد حقًّا: أن لا إله إلا اللّه!.

ويستمر الترتيل.. فتستمر الأنوار الطافحة تنير جوانحك بمعرفة اللّه، وبتذوق وحدانية الخلق والصنعة في ربوبيته تعالى، وتكثر أنوار القناديل بين يديك، حتى يمتلئ بصرك يقينًا في اللّه..! فيا سالكُ! ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن

---

(١) رواه ابن ماجه. وصححه الألباني في صفة الصلاة :(ص ١٢٧). وفي صحيح سنن ابن ماجه، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع الصغير.

يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٥].

ها هي ذي أنوار العلم قد ملأت قلبك معرفةً بالله، فالتهبت أشواقك، وتأهبت أجنحتك لتطير منطلقةً من مدار توحيد الربوبية، حتى إذا حلقت في سماء الروح، شوقًا إلى تمحيص مقاصدها، ومدت أغصانها إلى الله رَغَبًا ورَهَبًا؛ انفتح عليها توحيد الألوهية شلالًا من نور، فجعل يغسل أزهار التعبد النابتة في القلب من غبار الشرك الخفي، ويطهرها من روائح الصلصال المسنون!

فسبحانك سيدي.. لا معبود بحق سواك! سبحانك أنت المعطي وأنت المانع، سبحانك أنت الضار وأنت النافع! لا إله إلا أنت!

كانت معاني توحيد الألوهية في القرآن، تنشر ظلال النور على القلب المتبتل؛ فَتَخْلُصُ مقاصدُه وتصفو، وهي تترقرق في أعماق الجداول اللاهجة بذكر الله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٤].

ذلك بهاء التوحيد، ضياء يشرق من فضاءات القرآن، على جمال التشريع الكوني، وجمال التشريع التكليفي، فيبرز التناسق والتوافق بين مدارات الأفلاك، ومواقع النجوم والأشياء، ومنازل الفصول؛ وبين مدار الإنسان المسلم لله رب العالمين.. فيبهرك كمال الصنع، وجمال التدبير، وجلال المقصد والمصير!

وتنفتح أقواس النور - داخل مدار التوحيد العظيم - فتنتشر خمائلها في

القرآن تترى.. ومنها تلج في صلاتك إلى عوالم أخرى، محتفظًا بأذواق المقام الأول في قلبك، وتمر عبر شلالات أخرى؛ استشفاءً مما بقي من أسئلة مقام الحيرة: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟.. واستشفاءً مما بقي من وخزات الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. فترى الموت والحياة في الأرض يتعاقبان، كما تتعاقب الظلمة والنور.. وتدور فصول الحياة بين ربيع وخريف، بدءًا بقصة الخلق، وقصة آدم عليه السلام مع إبليس اللعين، مرورًا بدعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فترى أمواج البشرية تتدفق بين إقبال وإدبار، وبين إيمان وصدود.. جيل ينسخ جيلًا، والناس في غفلة رهيبة عن سنة الحياة الصارمة!. أشجار تورق ثم تزهر، ثم... ثم تمسي هشيمًا في ليالي الأشباح، فسل الرياح كم ذرت في البطاح!

كانت قصور شامخات وتكون، وكان جبابرة ومستضعفون، يسقط فرعونٌ ويقوم آخرون، ولريح الخريف دورة لا يتخلف موعدها أبدًا! فإذا الحدائق أزهرت شهواتها، وطفحت نزواتها.. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]. وَيْ..! كأنْ لم تَغْنَ بالأمس!.. كأنْ لم تَغْنَ بالأمس!

وتمر دعوات الأنبياء ومضاتٍ بارقةً في ظلمات التاريخ، فتورق شجيرات في ظلال النور هنا وهناك، ويأبى فريق من الناس إلا نفورًا.. وتمضي الرغبة العمياء لاهثة وراء الجاه والسلطان، وإنما هو ركض في مملكة اللّه الواحد القهار!.. عجبًا! كيف ينازع عبدٌ يموت الحيَّ الذي لا يموت؟! وتبقى المملكة لسيدها ابتلاءً وذكرى لكل اللاحقين: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٩].

ثم تمضي بك أقواس الدعوات النبوية إلى عالم اليوم الآخر.. فينبعث فيك الإحساس بالهول الكبير، إزاء يوم القيامة، وتنقدح الحركة الكبرى في يقينك، موعدًا عامًّا للقاء اللّه في يوم الفصل.. فإذا الأرض تحت قدميك تُرَجُّ رَجًّا! وإذا الجبال تهب في الفضاء الواسع ريحًا وغبارًا، وإذا السماء تُطوى طيًّا! بما فيها من أفلاك وبروج وكواكب ونجوم؛ تهييئًا لخلق كوني جديد.. !

لستُ أدري هل تلقيتَ شيئًا مما قرأت أم لا؟..! انظر إلى الجبال تهترئ صخورُها، فينسفها ربي نسفًا!.. فترى الأرض قاعًا فارغًا ممتدًّا، لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا..! فقبل قليل، بل قبل أقل من ومضة برق، أو قبل أقل من طرفة عين؛ كانت جبال راسيات، ترسخت متانتها أوتادًا، طيلة أزمنة جيولوجية مديدة، ثم هي الآن صارت هباءً منثورًا..! وإنه لمشهد رهيب، لا ينوب عن تصوير رهبته إلا أن تراه حقًّا!! هذا تكوين جديد يفصل بين عالمين، أو قل بين نفختين! ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وترى بعينيك أهوال القيامة، صعقًا ونشورًا، فيزداد مقام الخوف والرجاء بذاتك توهجًا، وتتذلل بين يدي سيدك مرتلًا آياته عبر شلال دمع، متبتل منيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. ويتجلى ربك للقضاء بين خلقه، وما أدراك ما تجلى الرب للقضاء بين خلقه؟ أين الملوك والجبابرة؟ وأين المردة والشياطين؟ وأين الأنبياء والأتقياء؟ وأين قوافل المستضعفين؟ ثم أين أنت بين ذلك كله؟!

كانت الأنفس بارزة لا يخفى على اللّه منها شيء، وكانت الأبصار خاشعة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وتحل اللحظة الفاصلة بين الحق والباطل بجلالها العظيم، وينتظم الناس لِيُعْرَضُوا على ربهم صَفًّا، ويقوم جبريل عليه السلام والملائكة أيضًا صَفًّا.. و...

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩]. فيتشكل الناس بعد ذلك فريقين، كل فريق يمضي إلى عكس جهة الآخر، أفواجًا، أفواجًا، فيفترق بافتراقهما مقامُ الخوف والرجاء! ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧١]. ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣].

كانت الصور تمر حية بمقامك، وأنت راحل عنك إلى حيث مَشاهدُها.. وكانت الجوانح يطفح لهيبها ببكاء عميق؛ خوفًا أن يزيغ البصر عن محراب القانتين، فيرجك سؤال المَلكُ الجبار:

- ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦] .

وتمضي مع الترتيل الجليل مسلمًا:

- ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] .

أيُّ شيطان هذا الذي صرف الطير عن التغريد في البكور؟! أيّ لَعينٍ هذا الذي أخرس الترتيل في حناجرَ ما فُطِرَتْ إلا على ذكر خالقها، فأغواها بالتمرد الأخرق، ثم مضت تنعق في ظلمات الفجور؟!

من ذا الذي أطفأ هذا القنديل الجميل في عيونٍ ما أبصرت إلا لتتملّى سُبُحَات النور في محاريب السرور؟

مواجيد شتى من الأسف والأسى، تخفق بقلبك.. وأنت في وهج صلاة تتذوق بها جمال القرآن، وروعة التعبد! فتصغي: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٣٠] أوَ يُهْجَرُ يا صاح؟ كيف وهو الذي: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] .

كانت الرهبة قد هدَّت أغصانك، وكان الرجاء يمسح عليها بأنداء الدعاء،

وهو يزهر في رياض القرآن، ثم تحيا لطائف الفاتحة في قلبك من جديد، ذكرى طيبة، تسري بعروقك راحة شاملة، وسعادة عميقة، رشفًا لما نالك من رحمة اللَّه وفضله: « **هذا لعبدي.. ولعبدي ما سأل!** »[١].

* * *

(١) تقدم تخريجه.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

- وخر راكعا وأناب
- إلى مقام الحمد والثناء
- واسجد واقترب!
- جلسة بين يدي الملك
- في موكب العابدين..
- وهب عبير التحيات!

﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾

[ص: ٢٤]

كانت أمواج النور القرآنية، تمضي بسفينتك تجاه ساحل الوارد الفياض، حيث توحيد اللّه في ربوبيته وألوهيته وصفاته يملأ القلب تنزيهًا لذاته، فيشتعل الشوق بأشرعتك الخفاقة في الآفاق صُعُدًا إلى مقام التعظيم!

غصنك الساعة يكاد يذوب فناءً، من وهج عوالم النور، كلما ولجتَ قوسًا رأيت في عالمه من صنع اللّه وتدبيره ما يزرع جناحيك فَرَقًا من أيام اللّه!.. ويتسع الشعور بعظمة الملك في قلبك - وأنت تجول في مملكته - حتى يملأ عليك جميع كيانك! فأي قلب هذا الذي لا يتصدع من خشية الله، ولا يذوب صَخْرُهُ تحت سلطان عظمته؟! ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]. وكما ترى الأحجار تتهاوى، تستبد بك أنت أيضًا رغبة قوية في الهبوط من خشية اللّه! وتشتد رياح الشوق على غصنك الضعيف.. فتنحني راكعًا للّه..

- اللّه أكبر!

تكبيرة فاضت من أعماق القلب؛ تنـزيهًا للّه من كل متأله جبار! وتحطيمًا لكل من ينازعونه عزته تعالى وكبرياءه! فتتهاوى عروش الغرور في قصد شهود كمال المجد والعظمة، المشع من عرش الملك الواحد الأحد.. ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦] فهو سبحانه ملك الدنيا، وملك الآخرة، مُدَبِّرُ عالم الغيب وعالم الشهادة. أوَليس هو الذي ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٢- ٥] ..؟بلى والذي نفسي بيده!

وتتحلق أنوار الملائكة من حول عرشه العظيم، وهي تخفق بأجنحتها طائعة متبتلة، تسبح بحمد الملك الوهاب.. ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] فيفيض الإجلال والتعظيم والتنـزيه على خفقات قلبك، وأنت تتملى جلال مولاك ورحمته، وعظمة سلطانه وعلوه، وسعة ملكه وعلمه، وحكمة تدبيره وتقديره.. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .. فركوعًا إذن لعظمة الله! وترديدًا لإرشاد إمام الأمة في أدبها مع الله: « **فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷻ »(١).

وتتوالى التسبيحات للملك العظيم تترى:

- « **سبحان ربي العظيم! سبحان ربي العظيم! سبحان ربي العظيم!** »(٢).
- « **سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائكة والرُّوحِ..!** »(٣).
- « **اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ. خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي!** »(٤).

وتتكاثر القناديل حتى يتدفق النور من الفؤاد..!

وفي الركوع سِفَارُ الغصن المنحني، إلى مقام تقويم النفس ورياضتها.. قال دليل السالكين إلى اللَّه: « **إذا ركعتَ فَضَعْ رَاحَتَيْكَ على ركبتيك، ثم فَرِّجْ بين أصابعك، ثم امْكُثْ حتى يأخذ كل عضو مأخذَه!** »(٥).ويتذلل الغصن بين يدي

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم. (٤) رواه مسلم.
(٥) رواه ابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما. واعتمده الألباني في صفة الصلاة: (١٣٣). كما حسنه في صحيح الترغيب.

خالقه؛ « **حتى تطمئن مفاصلُه وتسترخي!** »[١] فتورق أحوال الصفاء في عبارات التسبيح والتعظيم..! كذلك كان دليل السالكين ومعلمهم عليه أفضل الصلاة والتسليم « **إِذَا رَكَعَ سَوَّى ظَهْرَهُ حَتَّى لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ لاسْتَقَرَّ!** »[٢]. فعليك الصلاة والسلام يا سيد الخاشعين!

كانت الأنفاس تتجول في مملكة اللّه مأذونة، وهي منحنية المواجيد إجلالًا لسيدها العظيم، وكلما طال انحناؤها ازداد ارتقاؤها في مقامات النور.. فيتوالى التسبيح بحمد الرب العظيم، صُعُدًا إلى جوار ذي العرش المجيد، حتى تشعر بنسيم فصل جديد؛ فصل ربيعي الأريج، يفتح أقواسه الخضراء بين يديك، فإذا دقاتُ قلبك أهدأ ما تكون، وألطف ما تكون .

كان مقام الأنس يرشح عليك بأنداء غفران جديدة، وفوز جديد، ويُحَلِّيكَ ببهجة الرضوان، وجمال العطاء، وحسن المآب.. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]

ويمضي العبد في تذوق مزيد من رشفات التسبيح، خاضع الفكر والوجدان، مستغرق في تملي عظمة اللّه، وما يفيض عن أسمائه الحسنى من صفات الكمال، مَلكًا، قدوسًا، سلامًا، مؤمنًا، مهيمنًا، عزيزًا، جبارًا، متكبرًا، خالقًا، بارئًا، مصورًا، حَكيمًا، فتاحًا، عليمًا... وتنشر الأسماء الحسنى محاسنها المتدفقة من مشكاة اللّه.. معاني تملأ غصنك الراكع رهبةً ورغبةً في مقام التنـزيه والتعظيم!

ألا يا صاح، أوْقِدْ سراج القلب من زيت هيبة الجليل! واقْتَبِسْ شعاعًا من نورها المتجلي على صفوف الراكعين ببابه، تنكشف عنك ظلمات الشرود،

(١) رواه أبو داود، والنسائي، والدارمي، والطبراني في الكبير، والدارقطني. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. واعتمده الألباني في صفة الصلاة: (ص١٣٣). وصححه في صحيح الترغيب، وفي تحقيق سنن أبي داود والنسائي.

(٢) رواه ابن ماجه عن وابصة، والطبراني في الكبير والصغير عن ابن عباس وأبي برزة وأبي مسعود. كما رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص١٣٤)، وفي صحيح سنن ابن ماجه وصحيح الجامع الصغير.

وتنبت دالية المحبة بصدرك، فيهب عليها ريح الخشية، نسيمًا قادمًا من فضاء التملي لأنوار الأسماء الحسنى، تسبيحًا، وتنـزيهًا، وتعظيمًا، فيتشكل الذكر أقواسًا من نور وهاج، تلج منها إلى أفق المعرفة بالله.

كانت آيات العظمة تنساب من جلال ذاته تعالى، وبحار صفاته، كل بحر منها تمده أبحرُ القِدَمِ والدوام، الزاخرة في اللازمان واللامكان! فإذا تجليات الهيبة تتدفق على مجاري الأنفاس الخاشعة؛ تنـزيهًا لذي الجلال والإكرام:

- « **سبحان ربي العظيم..! سبحان ربي العظيم..! سبحان ربي العظيم..!** »(1).

ومضى جناح الخوف يخفق تحت ظلال العظمة؛ فرارًا إلى عفو الملك الغفار! ومضت الأنفاس تسبح خالقها حتى فنائها، متبتلة بارتشاف رحيق التنـزيه والتقديس، كما يليق بجلال الجمال في نور وجهه العظيم.

وتحلق أجنحة الفؤاد.. فإذا أصداء الحفيف زفرات مرتعشة، حبًّا ومهابةً:

- « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائكة والروح! »(2).

فيورق غصنك في انحنائه مقامات مزهرة؛ إيمانًا، وإسلامًا، وتوكلًا، وتذللًا، وخضوعًا، فتدعو، وتدعو:

- « **اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي.. خَشَعَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي؛ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ!** »(3).

وأي جارحة بمقدورها أن تشرد عن رعشة الغصن في نسيم الرهبة؟ وأي فنن يستطيع كف أزهاره عن سح الندى؛ إذا ما انبجست السماء بقطر لطيف؟

---

(1) عن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ فكان يقول في ركوعه: « سبحان ربي العظيم » رواه مسلم.

(2) عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: « سبوح قدوس رب الملائكة والروح». رواه مسلم.

(3) رواه أحمد، وابن حبان، وابن خزيمة، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط، والدارقطني. وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٣٨). وقد سبقت رواية مسلم لنحوه. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

« يا أيتها الأمطار ألا انتحبي انتحبي..!

هذي الدوحة في ذاتي تنشر أكبادًا من حطب!

فأديمي رشحك يا بارقة الليل ولا تحتجبي..! »[١].

ذلك، ولركوع الليل الساجي إخباتُ الزرع، إذ تدلت سنابله خاشعة عند سكون الريح.. إذ يستشعر القلب ولوج الكائنات مقام الفناء، فلا صدى إلا لكلمات التنـزيه، تنطلق من فؤاد العبد الساري، وهو يقتفي آثار النور في دلجة الصحراء.. حتى إذا انسدل عليه مقام الغربة، ورشقه بمشاعر الوحشة الرهيبة، بكى خشيةَ أن يضل بعاصفة الشرود، من بعد ركوع قانت وخضوع! وما يدريك؟ فظلمات الحياة ما زالت تنذر بلياليها القارسة..! ألم يغرق نبي اللّه يونس ﵇ ويلتقمه الحوت بعد ركوع وسجود؛ لولا أن تداركه الحليم الكريم: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]. وتستغيث مولاك يا صاح منـزهًا إياه بعبارات التعظيم، اللائقة بجلال ملكه العظيم:

- « **سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ، وَالْمَلَكُوتِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْعَظَمَةِ!** »[٢] فينهمر النور على قلبك أنْسًا، بجوار من لا يذل جاره، ولا يعز عدوه! ويُعْشِبُ المسرى الليلي بين يديك نورًا متهادي الظلال عن اليمين وعن الشمال.. وينشط الحادي بقلبك شوقًا إلى ديار المحبوب!

كانت واردات النور تغمر غصنك الساكن في انحناءٍ جميل، وكانت التسابيح ترسم لشهودك وقتًا لا تنسخه حركة الأفلاك أبدًا! كل أنفاسك الساعة مبسوطة.. تلهج بالتنزيه لذاته تعالى وصفاته، ناثرًا أنفاسك قطرة قطرة، حتى آخر رمق من

---

(١) من ديوان المقامات للمؤلف (مقام التهذيب والتصفية).

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٣٨)، وفي مشكاة المصابيح، وصحيح سنن أبي داود والنسائي. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده قوي ».

رحيق العُود! فإذا بفؤادك ينبسط لنسيم من نورٍ عُلْوِيٍّ الذوق، فترشف منه أحوالَ جمالٍ وسكينة، تكسوك ربيعًا من رضى مولاك! فكانت تلك إشارةَ إِذْنٍ كريمٍ؛ كي ترفع غصنك ارتقاءً بمعراج التعبد!

❊ ❊ ❊

إلى مقام الحمد والثناء

ما أجمل النخيل وهو يَمِيدُ رَهَبًا بين يدي مولاه! وما أجمل حركة سعفه الأخضر! وهو يعود الهوينى ليستقيم واقفًا في أدب تام..! ينثر خفقات المحبة حمدًا وثناءً على اللَّه؛ اعترافًا بجميل العطاء، مما شاهده وتلقاه من آيات العظمة، لدى ركوعه تحت عرش الرحمن!

كانت تجليات المقام أبهى من أن تحصيها حمدًا تذوقاتُ قلبٍ ضعيف الجناح؛ سبحانك سيدي! ومن يحصي ثناءً عليك، بل أنت كما أثنيت على نفسك!

وتُسَلِّمُ كمالَ الحمد لربك رافعًا:

« **سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ!** »(١).

فتستقيم قائمًا، وفؤادك يبتهج رجاءً في سماع اللَّه لخفقات الحمد، من عبد ضعيف، محدود بالزمان والمكان، شاكرًا لمن أحاط فضلُه وكرمُه بالزمان والمكان! ثم يفيض الرجاء دعاءً تتشكل أنواره قناديلَ ذات ألوان أخرى:

- « **رَبَّنَا وَلَكَ الحمدُ!** »(٢).

ويمضي النبي الكريم ﷺ يرسم علامات النور، هُدًى للعابدين، الممتثلين لأمر اللَّه في اتباع إشارات الإمام، كلما ركع أو سجد:

- ... **وإذا قال**: « **سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ** » فقولوا: « **اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحمدُ** »؛

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

يَسْمَعِ اللَّهُ لكم! فإن اللَّه تبارك وتعالى قال على لسان نبيه ﷺ: « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ! »(١).

وتبرق آفاق الأرض بعبارات الحمد تترى، هالات محلقة في الفضاء، حتى تتوافق مع أنوار الحمد النابضة في السماء، فتزداد حسنًا وجمالًا، ثم تتشكل غيمة من نور، تنهمر مطرًا يغسل المصلين من دَرَنِ مسيرة العمر كله!

وتتسابق الأنفاس بالحمد؛ لجني عناقيد الاتفاق، أوَليس « **مَنْ وافقَ قولُه قولَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه** »؟!(٢)، وتعتدل الأغصان مستقيمة، وهي تزرع دفْءَ الاطمئنان في فروعها، حتى ترجع الأنفاس إلى انسيابها الهادئ الجميل، لاهجة بالدعاء والثناء.. قال معلم السالكين: « **وإذا رَفَعْتَ فَأَقِمْ صُلْبَكَ! وارْفَعْ رأسَك! حتى ترجع العظامُ إلى مفاصلها!** »(٣).

فيا صاح افتح أقواس المقام! حمدًا للَّه على ما نِلْتَ من تملّي ملكوت اللَّه! فإن أدب العبودية يقتضي المكوث ببابه حتى يأذن بالانصراف!(٤) وَلْتَطْوِ المسافات إلى شجر الثناء، بتكبيرة الحمد على فضله وإحسانه. فاللهم « **رَبَّنَا ولَكَ الحمد! حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه!** »(٥)، واللهم رَبَّنَا ولَكَ الحمدُ « **مِلْءَ السماواتِ، ومِلْءَ الأرضِ وما بينهمَا، ومِلْءَ مَا شِئْتَ من شيء بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ والمجدِ، أَحَقُّ ما قال العبدُ، وكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانعَ لِمَا أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا منعتَ، ولا ينفع ذَا الْجَدِّ منكَ الْجَدُّ!** »(٦).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في المشكاة، بينما حسنه في صحيح الجامع. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٤) « كَانَ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ انْتَصَبَ قَائِمًا حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ قَدْ نَسِيَ! » متفق عليه. وذلك من طول ما يبقى قائمًا!.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم. والجَدُّ: الحظ، والنصيب الوافر.

ويملأ الحمدُ الكونَ كلَّه طِيبًا، وأريجًا مباركًا بأنوارك يا سيدي، فإنما الحمدُ ما حَمِدْتَ به نفسكَ، وإنما الثناءُ ما أثنيتَ به على جمالك! سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، فلا أهل لذلك إلا أنت!

هذي كلمة الحق الكاشفة، تكشف عن واقع الفقر المطلق إلى اللّه، وإنها لأَحَقُّ ما تَعَبَّدَ به العبدُ داعيًا: «**اللُّهُمَّ لا مَانِع لما أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لما منعت!..**» فمنك الفضلُ كله، ولا منة لأحد عليك، فماذا يفيد المحظوظ حَظُّهُ؟ وأيُّ حَظٍّ خارجَ فضلك وإنعامك؟ سبحانَك، سبحانَك.. لكَ الحمد كل الحمد!

كانت الكلمات جولة ثانية في مملكة اللّه، تكتسي فيها الأغصان - وهي قائمة - بهاءَ الألطاف الرحمانية، وبهجة السناء الربيعية، لدى مشاهدتها تجليات الحمد والثناء، فانبجست البراعم الريانة زهورًا، ذات أريج مُقَطَّرٍ من بستان الأسماء الحسنى، فإذا قلبك خمائل مورقة، ذات أزهار وأطيار، تخفق بتسبيح الواحد القهار..!

هذا الوارد الفياض من نور اللّه، يغمر مقامَك الساعةَ بمزيد العطاء والإفضال؛ فتحس بالتصدع في غصنك؛ عجزًا عن مقابلة كل عطاء بشكر، وكل إنعام بحمد! ويغلبك بحر الجود الرباني، الممتد امتداد بقائه تعالى؛ فتملؤك الرغبة في الحمد خَرًّا إلى الأرض ساجدًا.. ومن ذا يرى مددَ اللّه الغَيْدَاقَ؛ فلا يهبط من خشية اللّه؟

ولَفَضْلُ اللّه أعظمُ من أن يحاط بشكر، فاملأ عينيك يا عابد بجمال قنديل النبوة؛ إذ يوقده رسول الله ﷺ من مشكاة اللّه؛ تَرَ كلمات الملك ﷻ، وهي ترسم في حديث قدسي، عظمةَ فضله وجوده، أبحرًا من نورٍ كريمٍ متدفقٍ أبدًا:

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ!

يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ!

يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ!

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِر لَكُمْ!

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي!

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا!

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا!

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ!

يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ! وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ! »[١].

كان الفضلُ أعظمَ مما يحصيه الطير تغريدًا وتفريدًا، وكانت النعمة أطيب مما تنثره زهورك حمدًا وثناءً!!

فيا مولاي، أكرمني بأن أَخِرَّ ساجدًا بين يديك أبدًا، فإن فضلك الذي لا يُحصَى زَرَعَ حدائقي بزيتونة مباركة، لا شرقية ولا غربية، ما يزال زيتُها النابض بقلبي، يُوقِدُ قنديلَ الهدى الْمُشْرِقِ بين جوانحي، شاهدًا عليَّ بحقك العظيم إلى يوم القيامة!

هذا الشوق الوهاج يَهُبُّ عليَّ الآن رياحًا مباركةً، تعطف غصني المتجرد من أوراق الأغيار والاستكثار.. فسبحانك سيدي! نورُكَ ما يزال يدق بقلبي: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦]. فأْذَنْ لي مولايَ أن أُوقِدَ قنديلَ مقامي الأقرب، على بساط التراب! فلا طريق أقرب إلى المقامات العليا من طريق الْمُتْرِبِينَ، إذا ما سجدوا تذللًا تحت نور عزتك وكبريائك، وتنـزيهًا لعلو ذاتك وجلالك!

***

(١) رواه مسلم.

﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾

[العلق:١٩]

- اللَّه أكبر..!

كان الجبل يتصدع تحت نور اللَّه العظيم، وكانت صخور قمته العليا تهوي خاشعة نحو السفوح تترى..! وتهب رياح التسبيح شاهدة بوحدانية اللَّه في علوه، فتتصدع الأغصان الصلبة القاسية بذاتك، ثم تنكسر لتهوي حطامًا على الأرض..! بينما تدخل الأغصان الطرية الندية في حال ارتعاش ربيعي، فتذوق بين يدي اللَّه أحزانًا وأفراحًا.. وقد أثقلها ما تفتح بها من براعم الحمد والثناء، قبيل حالها الجديد؛ فتهوي إلى الأرض منحنية كقوس قزح، حتى تُقَبِّلَ عتبة الرب الأعلى!

ويُشعل البكاءُ قناديلَ من نور الوادي المقدس طُوَى، ثم ينفتح الباب العالي.. ويتدفق نور اللَّه على بساط سجودك؛ فإذا التراب والحصى جَوَاهِرُ تشع بجمال السكينة بين يديه تعالى.. فلا تملك إلا أن تبكي..! آه يا صاح! ومن ذا قدير على إمساك أندائه، بغصونٍ بَهَرَهَا جمال اللَّه في عليائه؛ فارتفعت أشواقُها بمعراج السجود، راحلةً إلى مقام الجوار الأقرب؟ وكيف لا؟ وها تلك الغصون الريانة بذكر اللَّه ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]. فَدُقَّ البابَ إذن يا قلبي بأغصانك السبعة! فإنه « إذا سجد العبدُ سجدَ معه سَبْعَةُ آرَابٍ [أَوْ أَطْرَاف]: وَجْهُهُ، وكَفَّاهُ، ورُكْبَتَاهُ، وقَدَمَاهُ »(١).
دُقَّ البابَ ولا تسأم! فإن الْمُحِبَّ حقًّا لا يسأم من نداء حبيبه، تنـزيهًا له في عليائه:

---

(١) رواه أحمد ومسلم، والأربعة، والبيهقي في الكبرى، وأبو يعلى، وابن حبان، وابن خزيمة.

- « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى! سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى! سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى! »(١).

تلك درجات المقام الأقرب، فارتق بها ما تشاء في معارج المقرَّبين! وأوْقدْ حولَك من قناديلَ التنـزيه ألوانًا من النور الجميل! تسبيحًا وحمدًا ودعاءً! واضرب بجناحك سابحًا في ملكوت اللَّه؛ حتى تغمرك أنوار الرضوان! هذا الحبيب محمد - عليه الصلاة والسلام - يهديك أزرارًا بلورية؛ لإشعال قناديل الليل، وأخرى لقدح شموس النهار!

- « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي! »(٢).

- « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الملائكة والروح! »(٣).

- « اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وبكَ آمنتُ، ولكَ أسلمتُ، وأنت ربي! سَجَدَ وجهي للذي خلقه، وصوره، فأحسن صوره، وشَقَّ سمعَه وبصرَه.. فتبارك اللَّه أحسنُ الخالقين! »(٤).

ثم اطْلُبْ يا ساجدُ من سيدك الكريم فيضًا من نوره المتدفق رحمةً وغفرانًا:

- « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا! »(٥).

تلك إشاراتٌ من أدعية سيد العابدين وتسبيحاته، تتوالد عناقيدُها من دالية السجود! - ودوالي الدعاء في رياض النبوة كثير - فترنم يا ولدي بشعاعها المتعدد الأطياف؛ عساك تكون من الساجدين!

- كانت أسراب الطير تحلق في الفضاء عارجة إلى ربها.. ودالية المحبة ما تزال تمعن في معانقة التراب بأغصانها السبعة، ساكنة، مطمئنة، في انحناء

---

(١) أقل ما تقال (ثلاث مرات)، وقد رواه مسلم، وأحمد، والأربعة، وغيرهم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

كامل جميل.. وبقدر ما يطول إطراق الجبهة والأنف على الثرى؛ يخف الجناح الضارب في معراجه إلى مولاه!

وتسري أنفاسك حتى فنائها.. لاهجة في سكون الأعماق المشرقة بنور اللّه: «سبحانَ ربي الأعلى! ».. نجوى فائرة من فؤاد العبد، تفوح أشواقها بأريج محبة المعبود! وتلح مواجيدك في طرق الباب الأعلى، دعاءً وبكاءً.. ثم تعود إلى تحبير التنـزيه الجميل: «سبحانَ ربي الأعلى!.. سبحانَ ربي الأعلى!.. سبحان ربي الأعلى!.. »

وينفتح المقام..!

كان الجمالُ أَبْهَى وأكرم، وكان النورُ أَوْفَرَ وأعظم، وكان الشهود أعلى وأرفع، وكان الفؤاد أقربَ وأخشع..! وتمتد إليك كؤوس الأنس وَارِدَاتٍ مُرَحِّبَة، تمسح عنك عناء السفر، ووحشة الطريق، وتطرق سمعَك نجاوى الخلائق الساجدة لربها، وتأنس لتسبيحاتِ ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨]. فتذوق جمال السير في موكب العابدين، الوافدين من كل الأفلاك والمدارات والعوالم؛ طلبًا لمقام القرب الكريم! ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]. وتفور أنفاسك تتوالى بلا انقطاع، وهي تسابق العابدين مسارعة إلى جوار اللّه: « سبحانَ ربي الأعلى!.. سبحان ربي الأعلى!.. سبحان ربي الأعلى!.. ».

هذا مقامك الساعة يا صاح ترتقي به ثلاث مراتب:

أما الأولى: فقد كان الفؤاد يحلق دون أن يلتفت خلفه أو حواليه، والعين مفتوحة على جمال اللّه في عليائه؛ تسبيحًا لا تنقطع أصداؤه بانقطاع ألفاظه.. فتطرق خاطرَك أطيافُ الجبال العالية، والأكتاف العالية، والهامات العالية، فتنهار أشباحها الكاذبة تحت علو العَلِيِّ العظيمِ جل علاه! فلا مكان هنا لغير الذاكرين، الخاضعين، المخبتين!

أما الثانية: فتضرب مرة أخرى بجناحك الخفاق في الآفاق: « سبحان ربي الأعلى » فينقدح نور قنديل آخر بقلبك، يخفق به الشوق مضاعفًا، ويملك ذوقُ العبادة عليك كُلَّ أحوالك، فتتلاشى حواليك رسوم العابدين، فلا مكان في خاطرك الساعة لغير غصنك الساجد للَّه في مملكة اللَّه، فإذا الحياة الدنيا بما فيها تُطْوَى تحت بساط سجودك طيًّا، تمامًا مثلما تطوى الأحلام والأوهام، وتمضي في معراجك بين المدارات إلى اللَّه فردًا! ذلك مقام استشعار اليوم العظيم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]

لا إله إلا اللَّه!

وأما الثالثة: فقد كان واردك فيضًا رقراقًا، وكان النور يحيطك من كل جهاتك، فترشف نَفَسًا آخر من كأس التنـزيه: « سبحانَ ربي الأعلى! ».. فيمتد النور ليمحو كل العوالم التي سلكتَ معارجَها إلى ربك، أثرًا أثرًا.. حتى تفنى عما سوى الجليل وحده! ويخفق قَلْبُكَ شاهدًا عبوديتَه لمولاه، متذوقًا عُذُوبَةَ كَوْثَرِهَا المتدفقِ من مقام الجوار الأقرب.. عُذُوبَةً رَافِدُهَا جمالُ الأنس باللَّه، وباللَّه وحده!

كان النور أصفى تسبيحًا وتنـزيهًا، وكان القلبُ أقْرَبَ محبةً ومشاهَدةً، بحيث انبسطتْ ذَاكِرَتُكَ أمامَكَ مكشوفةَ الأوراق! عليها آثامُك وخطاياك، نُكَتًا سوداءَ، زاحمتْ أوقاتُ شرودكَ فيها أوقاتَ إنابتك.. فما أن تنظر فيها حتى تلسعك سياط الخجل بين يدي مولاك، وتبكي..! تبكي عليها أثرًا أثرًا؛ حتى تذوب الواحدة تلو الأخرى، في نهر دموع تتدفق عليك جداوله من عفو اللَّه! ثم تدعو، وتدعو حتى تفنى في نَفَسِ دعائك!.. فواحسرةً على عَبْدٍ سجد للَّه فما دَعَا! عجبًا..! كيف يرجع بغير زاد وقد عاد من حيث عاد؟! عجبًا لمن يطرق باب الكريم فلا يسأل من لا يرد سائلًا؟ ومَنْ ذا يستغني عن فضل اللَّه ورحمته؟

كان الحبيب محمد ﷺ يمد أُمَّتَهُ بقبس من نور المعبود، يوقد به قناديل أخرى في طريق السالكين، قناديل لا تنطفئ إلى يوم الدين:

- « **ألاَ وإني نُهيتُ أنْ أَقْرَأَ القرآنَ راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ ﷻ، وأما السجودُ فاجتهدوا في الدُّعَاءِ، فَقَمَنٌ**[١] **أن يُسْتَجَابَ لَكُمْ!** »[٢]، وإنَّ « **أقربَ ما يكون العبدُ من ربه وهو سَاجِدٌ، فأكثروا الدعاءَ فيه** »[٣].

وهنا تَذْكُرُ أحزانَك وأشجانَك، وتذكر جِرَاحَ هذه الأمة الكسيحة؛ فتفزع إلى اللَّه بالدعاء، تَذْكُرُ ذلك كله دون أن تفارق صفاءَ مقامك، وجمالَ اطمئنانك، فما كان جَارُ اللَّه الأقرب أن ييأس من رَوْحِ اللَّه. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وتفور الأدعية من أعماقك أنفاسًا محمَّلةً بأريج التسبيح والتنـزيه، وأنتَ ساجدٌ عند عتبة المولى الكريم.. فإذا الرحمة تغمرك بكل دعاءٍ منها غيثًا ربيعيًّا، يَهْمِي عليك وَابِلَ شفاءٍ، وشرابَ عافيةٍ؛ حتى تلامس جروحَ قلبك فإذا بها قد برئت تمامًا! فتسري الرعشة بعروق غصنك؛ فرحًا ببشرى الاستجابة وتبكي.. فتزداد خشوعًا، وتزداد عطاءً!

تلك يا صاح بعض كرامات الصالحين! الذين :﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

- أين أنت الآن؟

أنت في أقرب خفقة من ربك، أنت في مقام لا تفسده عليك غدران الزمان والمكان، ولا أمواج الحياة الدنيا بضجاتها!

فيا أيها الشارد بعيدًا عن قافلة السُّرَاةِ، السالكين إلى الرحمن.. ذُقْ سجدةً

---

(١) قمن: جدير وحقيق.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.

واحدةً للَّه الواحد القهار، تَرَ مقدار ما أنت عليه من حرمان وضلال! ومقدارَ ما عليه الساجدون من نعيم وجمال! ألا تنظر إلى نفسك كيف تدب - بغير صلاة - في الأرض على أربع؟ ويحك ذُقْ مواجيدَ السجود! تُورِقْ أغصانُك المنحنيةُ إلى الثرى ريشًا جميلًا، فلا تلبث حتى تطير مع أسراب العابدين! وإذا بك أخف وأنشط ما تكون! تسابق طير المحبة إلى نعيم اللَّه! فيا أيها العبد الحزين! « **عليكَ بكثرة السجود للَّه، فإنك لا تسجد للَّه سجدةً إلا رَفَعَكَ الله بها درجةً! وحَطَّ عنكَ بها خطيئةً!** »[1]، ألا وإنَّ السجود هو جمال العبادة وجلالها، وهو تاج الجباه المشرق نُورُهَا في غُرَرِ الخيل الراكضة إلى اللَّه..! وهو وِسَامُ الصالحين، الذين: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]. هو نورهم الذي به يعرفون يومَ القيامة! قال الحبيب المصطفى ﷺ:

- « **ما من أمتي من أحدٍ إلا وأنا أعرفه يوم القيامة!** ».

- قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول اللَّه في كثرة الخلائق؟

- قال: « **أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً** [أي: مَحْجَرًا] **فيها خَيْلٌ دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فَرَسٌ أغَرُّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟** »

- قالوا: بلَى!

- قال: « **فإن أمتي يومئذٍ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُونَ من الوضوء!** »[2] وَيَجِدُّ الْجِدُّ، فينذر يوم الحساب بهوله وزحامه، ويَعتقل الفزعُ أَلْسِنَةَ الظالمينَ وَرُكَبَهُمْ، وتخفق القلوبُ وَجِلَةً، وهي أحوج ما تكون من أي وقت مضى إلى رحمة اللَّه! هنالك يُدْعَى الذين أمضوا حياتَهم الدنيا شاردين عن طريق اللَّه؛ إلى السجود

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والبيهقي في شعبه، والطبراني في الأوسط. وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٥٨). والسلسلة الصحيحة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ». ومعنى الصُّبْرَةِ: مَحْجَرُ البهائم، أو الإسطبل. والغُرَّةُ: بياض في جبين الفرس. والتحجيل: بياض في أسفل قوائمه. ولا يكون كذلك إلا إذا كان الفرس أسود، أو أحمر، أو كُمَيْتًا.

بِرُكَبٍ كَسِيحَةٍ مُعْتَقَلَةٍ؛ تعذيبًا لا تعبيدًا! فيَا لَرَجْفَته من يَوْم! ويَا لَرَجَّته! ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

فيا أيها العبد المحب! دَعْ عنكَ عَذْلَ العاذلين، ولَذْعَ الساخرين، وزَجْرَ الطغاة المتكبرين.. وانصرف بوجهك كاملًا إلى مولاك، ثم افتح باب سجودك، فإن لك فيه مقامًا، مَنْ وَصَلَهُ عَرَفَ اللَّه حَقًّا، وشاهد تجليات الإحسان أنوارًا، بما لا يصفه لسان، ولا يرسمه بَنَانٌ؛ إلا إشارات لا تُغْنِي في البيان عن ذوق الْجَنان.

- قال أمين السماء جبريل لأمين الأرض محمد، عليهما الصلاة والسلام:

- « **أخبرني عن الإحسان** ».

- قال: « **أنْ تعبَدَ اللَّه كأنَّكَ تَرَاهْ، فإنْ لم تكنْ تَرَاه فإنَّه يَرَاكَ!** »(١) وكيف تراه وأنت عنه بعيد..؟ ويحك يا جاهل! أَحْرِمْ عن متاع الحياة الفاني إلى نعيمها الباقي! واتخذ قرارَكَ صَلْبًا قبل فوات الأوان! فإن الأيام لا ترجع القهقرى أبدًا! ولْـتَفُكَّ عنك قيودَ إبليس! ولْـتُجَرِّدْ فؤادَكَ من هواه..! هذا شبح الظلام يناديك، مُلَوِّحًا لكَ بالمناصب والألقاب، والقصور الشامخات، والغواني الفارهات..! حذار يا صاح! فإن شبح الظلام غَرورٌ، غرورٌ، غَرورٌ..! يغريك كي تضل عن طريق سجودك بين يدي اللَّه، حتى إذا فات الأوان شاهدتَ آنئذ أنما مغريات إبليس تماثيل من طين، لما يغمرها الماء تذوب تباعًا، فلا يبقى إلا اللَّهُ رب العالمين!

كان سجودك رحلة إلى اللَّه، يخشع فيها الغصن بوضع هامته على التراب، ويخفق فيها القلب محلقًا إلى المقام العالي، مخلفًا وراءه ركام الألقاب والأحزاب، ومعارك المال والأعمال، مما يُدْلَى به إلى الحكام، وإلى رموز الآثام.. حينها كان الغصن هادئًا، وساكنًا، منحنيًا فوق الثرى، ومُوَجِّهًا كُلَّ أطرافه نحو القبلة، باب العروج إلى الرحمن، متبعا أَثَرَ الرسول ﷺ في طريقه

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة مرفوعًا. أما حديث عمر بن الخطاب فهو عند مسلم.

إلى اللّه.. فهو أعْبَدُ المتقين ودليل السالكين. وقد كان ﷺ « إذا سَجَدَ وَجَّهَ أَصَابِعَه قِبَلَ القِبْلَةِ »(١). « وَفَرَّجَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ »(٢). وَ« وَضَعَ يَدَيْهِ غَيْرَ مُفْتَرِشٍ وَلا قَابِضِهِمَا، وَاسْتَقْبَلَ بِأَطْرَافِ أَصَابع رِجْلَيْهِ الْقِبْلَةَ »(٣)، كما « كَانَ إِذَا سَجَدَ أَمْكَنَ أَنْفَهُ وَجَبْهَتَهُ مِن الأَرْض، وَنَحَّى يَدَيْهِ عَنْ جَنْبَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ »(٤). ذلك أنه « إِذَا سَجَدَ العَبْدُ سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةُ أَطْرَافٍ: وَجْهُهُ، وكَفَّاهُ، ورُكْبَتَاهُ، وقَدَمَاهُ. »(٥).

كل شيء إذن فيك راحل إلى اللّه!.. راحل إليه عبر سجود خاشع، عميق الأنفاس! حتى الثوب، وحتى الشعر؛ إذ تدلى شيءٌ منهما فلا « يُكْفَتُ » أي: لا يُجْمَعُ؛ حتى يتم رسم صورة العبد المسلم أمرَه كاملًا إلى مولاه! قال الحبيب عليه الصلاة والسلام معلمًا: « أمرْنَا أن نسجد على سبعة أَعْظُمْ (...) ولا نَكْفِتَ الثيابَ والشَّعر! »(٦) لَوْحَةٌ حية في تمام التشكيل والتلوين، تفيض بآيات الجمال! فأيُّ صورة هذه، أم أي معنى؟

هذا العرجون المتدلي فوق الثرى، هو الآن أشبه ما يكون بالجسد المقبوض روحه! لكن الحياة هنالك تتدفق بقوة في عمق سكونه المهيب! وللقلب الخاشع خفقات، ترفع الطير الراحل مقامات أخرى، يطوي بها المسافات التي ضاقت عن طيها الأزمنة والقرون!

---

(١) رواه البيهقي. وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٤٨).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أبو داود، والترمذي وقال: « حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ »، كما رواه البيهقي في الكبرى، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما. وصححه الألباني في صفة الصلاة:(ص ١٤١)، ومشكاة المصابيح، وفي تحقيقه لسنن أبي داود والترمذي.

(٥) رواه أحمد ومسلم، والأربعة، والبيهقي في الكبرى، وأبو يعلى، وابن حبان، وابن خزيمة.

(٦) متفق عليه.

وأي عُودٍ يقدر أن يستجيب لريح الشرود، فيخرج عن خشوع السجود، وقد انفتح نور الرحمن على قلبه؛ فذاق ما ذاق من كمال الجمال؟

كنتَ من قبل قائمًا، فكان لسانك يقرأ، وفؤادك يُصغي، فتنفتح الأقواس أمامك على مملكة اللّه الفسيحة، لكنك الساعةَ ساجدٌ، لسانك يدعو بالتسبيح والتنـزيه، وفؤادك يشاهد مدارج المعارج؛ فيخشع وجلًا ويخنع، ثم يطمئن وكأنه يسمع: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]. وتسكن العروق والأفنان للحي القيوم، فلا صدى إلا لِسَحِّ الندى، يسري متبتلًا في غمرة الدعاء، هاميًا من مقلتيك على الثرى.. فإذا الصفوفُ حواليك دوالي، تورق ألطافًا من الخشوع، وإذا الطيور بأحضانها تبث شكواها لمولاها، همسًا صاعدًا من الأعماق، متأدبة بما يقتضيه المقام من الكلام: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]. فَلِمَ لا يُقَبِّلُ الحبيبُ أعتابَ المحبوب؛ وقد جاد على الفؤاد بكشف المحجوب؟ فَعَرَفَ ما عَرَفَ ثم اغترف! وذاق من شهوده في سجوده ما أحياه بعد موات! ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢].

وترشف من كؤوس التعبد عبوديةَ السجود لربكَ الأعلى، فتتحرر من كل الأغلال: المال، والسلطان، والأماني الفانية.. وتجري جداولُ الروح بين يديك صافية ثجاجة، تسقيك من أندائها جمالًا ربانيًا، يُنَضِّرُ غصنَكَ المنحني على الثرى، ويبعث فيه حيوية، وفُتُوَّةً لا تسكبها أباريق الرياضات.

ها هي رياح الإذن تهب الآن على الحدائق الساجدة غصونُها... كانت محملة بأريج الرضا، ورياحين العفو والغفران... تستنشق مليًا فتتدفق إلى فؤادك لَذَّةٌ من مقام آخر، وتدرك أنه قد آنَ الأوانُ لترفع جالسًا.

ثم ترفع رأسكَ، وفي قلبك شوقٌ عميق للرحيل سجودًا إلى يوم القيامة! فما يزال النبض الساجد يفيض على غُرَّةِ صاحبِهِ، نُورًا لا ينتهي بانتهاء الصلاة!

فكيف لا يمعن المصطفى الحبيب ﷺ في وضع وجهه الطاهر على ماءٍ وطين؛ تذللًا بين يدي مولاه؟ تلك صورة غرست داليةَ نور، بومضتها البارقة في أفئدة الصحابة الكرام، فَسَحَّتْ ما سَحَّتْ، على قلب الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو يتملَّى طَلْعَةَ رسولِ الله ﷺ بُعَيْدَ الصلاة، فَأَوْقَدَهَا أبو سعيد بهجةَ قنديل، في طريق المحبين إلى يوم الدين! قال مُتَذَكِّرًا بعد ذلك بزمن:

- « كَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزْعَةٌ [سَحَابَةٌ] فَأُمْطِرْنَا، حَتَّى سَالَ سَقْفُ الْمَسْجِد، فَصَلى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ »[(١)] وكان مكان سُجُودِه - عليه الصلاة والسلام - مما أَصابه السيلان، فَأَمَّ المسلمين بين يدي المولى الكريم، خاشعًا متبتلًا، والماء يغمر الثرى من تحت وجهه الطاهر، وهو ساجد لله، فما يزيده ذلك إلا حبًّا، وشوقًا إلى مولاه! ففي تتمة الحديث قال أبو سعيد رضي الله عنه بُعَيْدَ انصراف النبي ﷺ عن الصلاة: ولقد « رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرْنَبَتِه! »[(٢)].

ألا صلى اللَّه عليك يا سيدي يا رسول اللَّه! أيُّ حب هذا الذي سكن قبلكَ لمولاكَ؟.. حتى جعلتَ تحتضن الثرى بين يديه جل علاه، وتمرغ جبهتَك وأنفك الطاهرين في الماء والطين؛ فلا يزدادان إلا طهرًا وجمالًا! أنت النبي الصَّفِيُّ، الحبيب القريب، الخِلُّ المصطفى، الرسولُ الْمُجْتَبَى، سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين.. تَأَبَى إلا أن تكون عبدًا!

فيا لجمال العبودية في سجودك يا رسول اللَّه! ويا للبهاء المتدفق من مسجدك المتواضع للَّه.. ترحل فيه بين جريد نخل قديم، يَنِزُّ قطرًا بمحرابك المترب بحب اللَّه، وبين طين يرتسم على وجهك وسامًا من نور، فيرفعك إلى مقام العبودية الأعلى!.. ويأبَى المترفون اليوم - إذا سجدوا - إلا أن يسجدوا على فِرَاءِ الحرير!

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

- وهل يسجدون حقًّا؟

ألا شَتَّانَ، شَتَّانَ بين سجود الأحباب وسجود الأخشاب!

* * *

جلسةٌ بين يدي الملِك!

- اللَّه أكبر!

وترفع رأسك خاشعًا بين يدي مولاك، ترفعه دون أن ترفع بصرك، فَالْمَلكُ ما يزال قبَلَكَ، يرقبك من فوق عرشه العظيم، وأنت تنثر روح المحبة والإخلاص، والولاء الكامل؛ قائمًا، وراكعًا، وساجدًا، فجالسًا بين يديه. فَاجْلسْ إذن دون أن تفارق عيناك موضعَ سجودك، ولهيئة الجلسة بين السجدتين جمَالٌ آخر، وذوق جديد، فقد كان النبي المعلمَ ﷺ « يُكَبِّرُ حينَ يَسْجُدُ، ثُمَّ يُكَبِّرُ حينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ »[١]، « وَكَانَ يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى »[٢]، أي أنه « إِذَا جَلَسَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ جَلَسَ عَلَى رِجْله الْيُسْرَى وَنَصَبَ الْيُمْنَى »[٣]، و« اسْتَقْبَلَ بِأَصَابِعهَا القبلَةَ »[٤]، « ثُمَّ اعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضعه مُعْتَدلًا »[٥]وكان ﷺ يطَيل الجلوس بين السجدتين، بل كان أحيانًا « إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ منْ السَّجْدَة مَكَثَ حَتَّى يَقُولَ الْقَائلُ قَدْ نَسيَ! »[٦]، فأي مقام هذا الذي يدخله النبي ﷺ في جلسته تلك؟ وأي جمَال هذا الذي يطيل مشاهدتَه تذوقًا وتمليًا؟

---

(١) متفق عليه.　　(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه النسائي. وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي إرواء الغليل، وصفة الصلاة: (ص ١٦١).

(٥) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي، والدارمي، وابن حبان، وابن خزيمة. وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح ». وصححه الألباني في الإرواء، والمشكاة، وفي تحقيقه للسنن الثلاث، وفي صفة الصلاة: (ص ١٦٢).

(٦) متفق عليه.

- هل تريد أن تعرف؟

يا أيها العبد الجالس أمام سيدك ومولاك! أنتَ الآنَ في مقام كريم، بين يدي رب كريم، ألم تَرَ أن سيدك هو الملك العظيم، ذو العرش المجيد، قاصم الجبارين، ومذل المتكبرين؟ يقول المصطفى ﷺ راويًا عن ربه: « **الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ!** »(١)، وفي رِوَايَة أخرى: « **الكبرياءُ رِدَائِي، فمَن نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ!** »(٢).

فهذه صفوف الملائكة عنده خاشعة وجلة: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]. مولاك هذا، ذو العظمة والجبروت، ورب الملك والملكوت، يأذن لك الساعة بأن تجلس مطمئنًا بين يديه، وتسأله سؤال المحبين! وكان خليقًا بالعبد ألَّا يُرَى عند سيده إلا واقفًا ممتثلًا، يسمع أمره ونهيه، قارئًا خاشعًا، أو راكعًا معظِّمًا، أو ساجدًا مسبحًا! ولكنه اللَّه، الرحمن الرحيم، الملك الكريم، يقبلك عنده جالسًا، تعبده بجلستك تلك، حتى إن كل عضو منك يدخل في سكون وراحة كاملين! فتغرف ما تشاء من أنوار الاستغفار، لتزرع غصنك بنشاط جديد، يمسح ما قد ناله من عناء أو عياء في سفاره، واقفًا، أو راكعًا، أو ساجدًا.. ثم جالسًا! لكن دون أن تتوقف عن المسير إلى اللَّه بجلوسك، فهو جلوس من غير توقف، كأنك على ظهر براق نوراني يطوي بك السموات، وأنت ساكن بمقعدك المريح! فَلْتُـنَاجِ مولاك متأدبًا بمواجيد المحبة، وخفقات الحياء، لِمَا أفاض عليك من إنعام وتكريم!

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود واللفظ له، والحاكم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وابن حبان في صحيحه. كلهم عن أبي هريرة، كما رواه ابن ماجه وغيره عن ابن عباس. وقد صححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، والسلسلة الصحيحة، وفي صحيح سنني أبي داود، وابن ماجه.

(٢) أخرجه الحاكم، وقال: « صحيح على شرط مسلم »، ووافقه الذهبي. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: « وهو كما قالا ». كما صححه أيضًا في صحيح الجامع.

فاجمعْ أشواقَ روحكِ ثم ادْعُ بدعاء النبي ﷺ: « **اللّهُمَّ اغفرْ لِي، وارْحَمْنِي، واجْبرنِي، وارْفَعْني، واهْدِنِي، وعَافني، وارْزُقني..!** »[١].

تدعو وأنت تتملَّى هيبة الملك الوهاب، ثم تنظر إلى نفسك في جلستك، فتحس أنك بقدر ما تجد من عظمة الهيبة التي لا تحاط وصفًا، ولا بعدد أنفاس بني آدم؛ تشعر بهول التقصير في حق اللَّه؛ فيستبد بك الحياء وتبكي!

- « **رَبِّ اغفر لي! رَبِّ اغفر لي!** »[٢]... حتى تذوب الأنفاس!

وتمضي في تأملاتك، ذاكرًا متفكرًا؛ حتى يغلبك نافح الشوق؛ فتضرب بجناحيك إلى المقام الأقرب مرة أخرى؛ ساجدًا للَّه الواحد القهار، عساك تغرف من بعد التخلي جمال التحلي؛ كي تنهض بعد ذلك إلى ركعة أخرى قائمًا، فراكعًا، فساجدًا، ثم جالسًا.. عبر مقامات من السياحة في مملكة اللَّه، ذات أذواق أخرى وأحوال!

* * *

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٦٣). وفي تحقيقه للسنن الثلاث.

(٢) رواه ابن ماجه، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والدارمي، وحسنه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٦٣). بينما صححه في إرواء الغليل، وفي صحيح سنن ابن ماجه والنسائي.

في موكب العابدين..

يا لجمال هذا العبد الْمُحْرِمِ في صلاته، راحلًا إلى اللَّه! يبتغي فضلًا منه ورضوانًا، مضربًا عن غوغاء السكارى، الشاردين في جحيم الضياع! ما أجمله وهو يمتطي راحلة النفس المطمئنة، راجعًا إلى ربه راضيًا مرضيًّا! فيقطع المسافات التي تقصر عن استيعابها الأعمار، ويختزلها ما بين ركوع وسجود، نشيط الروح، فَتِيَّ الوجدان، في قافلة من السائرين الذين ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

كان يرحل في حركاته الجميلة، بين استقامة وانحناء، كحروف عربية تنبض هالاتها الوضاءة من خلال آية قرآنية رُسمت على قوس محراب! ينثر روحه بين يدي ربه نفَسًا نفَسًا، بكل أمانة وإخلاص، شاهدًا جلال الركوع وجمال السجود، لحظةً لحظةً، من دون نقص ولا خَرْمٍ، ولا سرقة!

وإنَّ « **أسوأ الناس سَرِقَةً الذي يَسْرِقُ من صلاته!** ».

- قالوا: يا رسول اللَّه! وكيف يَسْرِقُ من صلاته؟

- قال: « **لا يُتِمُّ ركوعَها وسجودَها!** »[1].

---

(١) رواه أحمد، والطبراني، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم، وقال: « صحيح الإسناد »، ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٣٥)، وفي صحيح الترغيب، وصحيح الجامع. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

وتمضي في رحلتك المباركة، وسط سبحات الطير، والجبال، والشجر، والبحار.. في موكب كوني من السائرين إلى اللّه.. ترحل قائمًا في خشوع الجبال، والأشجار العظيمة الضاربة بهاماتها في الفضاء، تقوم مرتلًا بدون حراك ولا تململ، إلا كما تَمَلْمَلُ النخلة من حر الشوق إلى مولاها!

ثم تميد راكعًا كما يميد العرجون المثقل بعطاء الرب الكريم، أو كما تنحني الأغصان الغضة، المثقلة بالعناقيد الكثيرة! وتخشع خشوع السنابل المسبحة مع الرياح.. وتسكن سكون الأجراف الصخرية المطلة من علياء الجبال على البحار.. ثم تغطس ساجدًا لِتُسَبِّحَ اللّه مع الحيتان والأسماك، فينبض قلبك شوقًا إلى مولاك، تشتعل مواجيده اشتعال اللهب في بطن الأرض! ثم تجلس بعد ذلك لتعبد ربك مع كل وَهْطٍ ومنخفض، وتذكره مع أعشاب السهول، وحدائق الواحات، وحصى البطاح، ورمل الصحاري.. وتمضي في حركاتك الانحنائية الجميلة، متوالي السير مع الأمواج، والرياح، والأفلاك، رافعًا وخافضًا.. تعبد ربك سائرًا على خُطَا الرسول ﷺ بدقة، عبر منازل ومقامات من الجمال والجلال، في موكب الكون السائر بتقدير مولاه: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

ها أنت ذا الآن تختزل الكون كله بصلاتك، فيتشكل منها موكب عظيم من أصناف المخلوقات السائرة إلى اللّه، تخطو على نسق واحد، لا يصطدم بعضها ببعض، بل تمضي متوازية السير والتسبيح!

ثم ترحل في صلاتك عبر الزمن؛ إحرامًا مع الفجر، وقيامًا مع الظهر، وركوعًا مع العصر، فسجودًا مع المغرب، ثم جلوسًا مع العشاء، إلى أن تشرق هَامَتُكَ قيامًا مع انفلاق فجر جديد!

وتتغير الأحوال والمشاهد والمواجيد، من ركعة إلى أخرى، رغم ثبات

الهيئات والحركات، وكثير من القراءات والتسبيحات.. فالفاتحة هي نفسها في كل ركعة، لكنها تفتح عليك في كل تلاوة جديدة أقواسًا من المعرفة، وتذيقك مواجيد من المحبة، غير ما فتحت عليك وأذاقتك في الركعة السابقة! وأما السور والآيات فعجائبها لا تنقضي، وكنوزها أبدًا لا تنتهي! فالكؤوس غير الكؤوس، والأذواق غير الأذواق!

وما زلتَ في موكب العابدين، ترقى وترقى؛ حتى تبلغ مقام التشهد.

***

وَهَبَّ عبير التَّحِيات..!

ها أنت ذا جلبابُ نورٍ تملأ هالتُه المكان.. ترفع غصنَك من سجود خاشع، لتستوي جالسًا على الأرض، بعد سياحة الروح في معارج ركعتين كاملتين.. كانت حدائقك قد فتحت شجيراتُها زهورَ لوز ورمان، وأخرى مسكية الأريج، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ويهب العبير عليلًا طيبًا، فيخفق الجناح فرحًا بلقاء اللَّه.. ثم يفيض النور العلوي أقواسًا ذات بهجة، إيذانًا بانفتاح مقام التشهد، فإذا بك تدلف إلى عالم ضحوي الشعاع، ربيعي التغريد، قزحي الألوان.. هذا مقام جني الثمار بعد طي أحوال السفار.. فوارد الرضى يعمر قلبك الساعةَ بحب اللَّه، ويمدك برشفات من كأس الوصل، فيتجلى ربك بجلاله وجماله على قلبك المشوق بلقياه.. ويأذن لك بالتحية!

يا له من كرم! ويا له من إنعام! فَلْتَـنْشُرْ زهورَ روحك بين يدي حبيبك يا صاح! ولتأخذ بأسباب الأدب النبوي، قبل بث تغريدك بالتحيات.

كان سراج الأمة محمد ﷺ يرسم تعاليم النبوة، من أدب لقاء الملِك العظيم، عند موعد التشهد الأول من كل صلاة، ويقول مُعَلِّمًا: « **فَإِذَا جَلَسْتَ فِي وَسَطِ الصَّلَاةِ فَاطْمَئِنَّ، وَافْتَرِشْ فَخِذَكَ الْيُسْرَى، ثُمَّ تَشَهَّدْ!** »[1]. وقد كان هو عليه

(١) رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير. قال الألباني في صفة الصلاة: « سنده جيد ». ثم حسنه في الإرواء، وفي صحيح سنن أبي داود.

الصلاة والسلام « يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى »[١]، و« إِذَا قَعَدَ فِي التَّشَهُّدِ وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى (...) وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ »[٢] أي أنه ﷺ كان إذا تَشَهَّدَ « أَشَارَ بِإِصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ إِلَى الْقِبْلَةِ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ إِلَيْهَا »[٣]. وكان « يُحَرِّكُهَا يَدْعُو بِهَا! »[٤]، « وَيَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى إِصْبُعِهِ الْوُسْطَى، وَيُلْقِمُ كَفَّهُ الْيُسْرَى رُكْبَتَهُ »[٥]. ومرةً رأى رَجُلًا كَانَ يَدْعُو بِإِصْبُعَيْهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَحِّدْ! أَحِّدْ! » وأشار بالسَّبَّابَةِ.[٦] منبهًا له إلى ضرورة التشهد بإصبع واحدة، هي السبابة اليمنى لا غير. ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ولمقام التشهد جمال وبهاء.. فهذا العبد المدعو إلى مائدة الرحمن، لينال من فيض عطائه بهجةَ الوصال، وفرحةَ المناجاة، هو الآن جالسٌ جلسةَ الأنبياء والصالحين، تفوح أجنحتُه طِيبًا من مسك التجليات، وعنبر المشاهدات، مما نالته مواجيده في أحوال الركعتين الأوليين، عبر مقامات الإيمان، ومنازل الإحسان، في تذوقات السير إلى اللّه.

تجيء إذن إلى هذا المقام، محملًا بعبيرك الطاهر، لتجلس عند بارئك الذي صورك وكرمك، ثم دعاك إلى مائدته، حتى تغرف من معين الجمال أنوارًا، فتضفي على طهرك أطهارًا، فإذا الأقواس تنفتح أمامك جنةً وأشجارًا، وجداول

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه النسائي، والبيهقي في الكبرى، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما. وصححه الألباني في إرواء الغليل، وفي صحيح سنن النسائي، وفي صفة الصلاة.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والدارمي، وابن الجارود، وابن خزيمة، وابن حبان. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، والإرواء، والمشكاة، وفي صحيح سنني أبي داود والنسائي، وفي صفة الصلاة.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ ». كما رواه ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. ثم صححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ١٧١)، وفي صحيح سنن الثلاثة.

وأنهارًا.. وتهب الصَّبَا أريجًا من رياحين الأنس باللَّه، ثم ينبجس القلب بين يدي سيدك بالتحيات، بَلابِلَ تنثر الحب طيبًا وتغريدًا.

تجيء إلى هذا المقام لتعبد ربك جالسًا مرة أخرى، فتشهد كمالات التوحيد.. تمد سبابتك اليمنى فوق فخذك مشيرًا إلى القبلة، هناك حيث يفيض النور، وحيث تتجه القلوب خفاقة الجناح، تطوي المسافات بالسبحات والصلوات.. حتى تجلس جلستك هاته بمقام التشهد، موحدة ألوهيةَ الرحمن، ومؤدية تحيات الشكر للملك المنان!

فيا صاح أَحِّدْ أحِّدْ! فإن الديان واحد!

هذا عبير السلام يا زهورُ فارتجفي..! وانثري أنداءَ روحك بين يدي مولاك، وتأدبي عنده خاشعة الغصون! ثم اسكبي تغريدة التحيات:

- « **التَّحِيَّاتُ للَّه، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ!** »[1] تلك خفقات المحبة تنطلق من فؤاد العبد؛ تحيةً للسيد الكريم، وثناءً عليه بالتمجيد والتوحيد والتفريد.. تحيةٌ مباركة طيبة، كما يليق بجلاله وسلطانه! تحيةً جامعة لكل حمد وثناء، كما أثنى هو ﷻ على نفسه، مما عَلِمْنَا وما لم نعلم.. فهي تحيات!، وله تعالى الصلوات، مما فقهنا وما لم نفقه، ركعةً، وتغريدةً، وموجةً بحرية، وخَرَّةً صخرية، ودورةً فلكية.. فهي صلوات!، وله سبحانه الطيبات، من العبادات، والتسبيحات، والخطوات، والسكنات، والخطرات..

تلك التحيات والصلوات والطيبات، إنما هي للَّه رب العالمين.. ننثرها أنفاسًا خاشعة بين يديه تعالى، جالسين لدى تجليات جماله وجلاله، نستمد منه السلام، فهو - جل ثناؤه - السلام ومنه السلام!، فيفيض علينا من بحر كرمه وجوده بالرضى والسلام.

ثم تدعو بالسلام - متأدبًا بآداب المقام - لنبي الأمة محمد عليه الصلاة

---

(١) متفق عليه.

والسلام، فإنما حب النبي ﷺ من حب اللّه.. فتحيةً لكَ يا حبيب اللّه!، تحيةً بما شرعت وكما شرعت:

- « **السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ!** »(١) سلامًا ينشر أجنحة القلب في الفضاء، ويغمرها شوقًا إلى روضتك الطاهرة، هناك بمقامك العالي الكريم بجوار الرحمن، ويوقد الأنوارَ بقافلة السراة المحبين، قناديلَ من بوارق سنتك الزاهرة!

فَلِحَاقًا يا قلبُ بركب الصالحين! السالكين إلى الملك السلام.. واشْهَدْ معهم تجلياتِ السلام!

ثم يهمي الوارد رقراقًا:

- « **السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّه الصَّالِحِينَ!** »(٢) فيمتد النور أمواجًا واسعة، ليشمل كلَّ عبد صالح في السماء والأرض!.

ثم تعود إلى ربك لتحقق تشهدك بين يديه، فلا شاهد عليك سواه:

- « **أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** »(٣) شهادةً متينةَ المعَاقِد، خالصة المقَاصد.. تختزل فيها نبضك، ومسيرة عمرك من البداية حتى النهاية، بل تختزل فيها الكون كله، في أبعاده المكانية والزمانية، أفقيًا وعموديًا.. فإذا هو يصير - بكل امتداداته - ذرةً واحدةً!، تستمد فضل وجودها من الرب الخالق العظيم!

شهادة تشهد بها على نفسك - بين يدي اللّه - أن أغصانك بما أورقت، وأزهرت، وأثمرت، لن تميد إلا ساجدة للّه، الذي لا معبود بحق سواه.

شهادة تقر فيها بكل حرية واختيار، أنك لن تسلك إلى مولاك في دلجة السالكين، إلا مستنيرًا بقنديل المحبة الوهاج، الموقد بيد الرسول الأمين عليه صلاة اللّه

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وسلامه.. فهذه آيات اللّه تُلقي الأمر المقدس على المؤمنين: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]. فماذا بعد هدى المصطفى عليه السلام إلا الضلال؟

شهادة تَصِفُ فيها ما تعتقده في شخص محمد ﷺ؛ عبدًا للّه ورسولًا منه إلى العالمينَ، يبلغ عنه التكاليف للعباد وهو أول العابدين؛ إذ تتجلى أنوارها فيه ﷺ هو أولًا، ثم تشع في السالكين.. فأكرم بها من نبوة! أشرقت على خاتم النبيين، العبد الذي جُعلت قرةُ عينه في الصلاة، فَوَلِهَ بعبادة اللّه حتى تفطرت قدماه! زاهدًا في الملك والمال والجاه، وفي كل زخارف الحياة الفانية.. فعاش مع المساكين السالكين إلى اللّه. ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]. فحقق عبوديته للّه قائمًا وساجدًا، ومعلمًا ومجاهدًا، فاستحال بذلك أن تقول أمته فيه ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام.

فعليك السلام أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته، نشهد أنك عبد اللّه ورسوله، بلَّغت، وأدَّيت، ووفَّيت، وجاهدت في اللّه حق جهاده حتى أتاكَ اليقين!، فعليك السلام، عليك السلام، عليك السلام!.

كانت شهادتك قد ملأت قلبك بجمال اليقين، وعمرت حدائقَك بأنوار التوحيد، وأنت ما تزال جالسًا إلى مائدة الرحمن، تنهل من أوراد الإيمان بخشوع، إلى أن بلغتَ الجوهرة الكبرى، التي شعت أسرارها بقلبك حتى ملأت المقام كله، فكانت عَلَمًا عليه، فَسُمِّيَ «تَشَهُّدًا».. جوهرة يوشحك الرحمن من لطائفها نضرةً وجمالًا، ويسقيكَ من مَعِينِهَا وَارِدًا زُلالًا، فيا قلبُ تَشَهَّدْ أنْ لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ تكن من المَفلحين!

كانت مسيرتك - عبر جلسة التشهد الأول - بهية الكشوفات، عطرة التجليات، فصرت تتوق - وقد خلع عليك المولى الكريم فيها جلباب الرحمة،

وبُرْدَةَ الرضوان - إلى مقام الخدمة في عبادتك للّه؛ تحقيقًا لمزيد من لذة التعبد في حضرته؛ ركوعًا وسجودًا تحت ظل عرشه، فتنهض من تشهدك نشيط الجناح، تقوم ممتثلًا أمام جلال اللّه.. ترحل إلى مقامات أخرى، وتدخل عوالم ذات أحوال وأذواق أخرى.. فلكل تلاوة ذوق جديد، ولكل ركعة مقام جديد! مقامات وأحوال، مما لم تجد قبل ولم تذق! وتمضي سائحًا في مملكة اللّه، تجني من أطايبها ما تشاء.. حتى إذا أديت حق اللّه كما أمر اللّه، وقطعت إليه المسافات بصلاتك، ثلاثية كانت أم رباعية؛ أَذِنَ لك في الجلوس إلى مائدته ثانيًا، مستروحًا بعبيرها ونعيمها، فأوقدت قناديل سَمَرٍ جميل، تحت خمائل الملِك الكريم.

وتمد يدك لترشف من كأس الوصل الثانية، واردات من التشهد الآخِر، فيتجلى النور على قلبك المسكون بحب اللّه.. ويأذن لك المولى بالتحية والسلام مرة أخرى..! ثم تأخذ بأسباب الأدب النبوي، في تحية مولاك، على ما يقتضيه أدَبُ التشهد الآخِر، فتجلس على هيئة أخرى غير ما صنعت في التشهد الأول، هيئة ذات بهاء وضَّاء، ووقار عظيم!، ويمتد النور من عينيك المشوقتين برؤية محمد ﷺ أول العابدين، وسيد القانتين.. تنظر إليه وهو يصلي جلوسًا بين يدي ربه، في تشهده الثاني.. فتقتدي به في جلسته وتشهده، كما اقتديت به في كل صلاته. تفعل ما يفعل، وتقول ما يقول.. حرفًا بحرف، فهو إمام السالكين، و« **إنما جُعِلَ الإمامُ ليؤتم به** »[1].

فها هو ذا الحبيب ﷺ قد أتم الركعة الأخيرة، وجلس للتشهد الآخِر، فتتبعه في جلوسه خاشعًا، وقد كان ﷺ « إِذَا جَلَسَ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ قَدَّمَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، وَنَصَبَ الأُخْرَى، وَقَعَدَ عَلَى مِقْعَدَتِهِ »[2]، « مُتَوَرِّكًا عَلَى شِقِّهِ الأَيْسَرِ »[3]. أي أنه

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد والأربعة، وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ »، وصححه الألباني في صحيح سننهم، وفي الإرواء.

أَفْضَى بِوَرِكِهِ الْيُسْرَى[(١)] إِلَى الْأَرْضِ وَأَخْرَجَ قَدَمَيْهِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ»[(٢)]. وهي ناحية اليمين. وصنع بيديه ما صنع في التشهد الأول؛ حيث كان ﷺ «إِذَا قَعَدَ فِي التَّشَهُّدِ وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى (...) وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ»[(٣)] وكان «يُحَرِّكُهَا يَدْعُو بِهَا!»[(٤)].

ها أنت ذا الساعةَ قد استأنفتَ مقامَك، جالسًا عند سيدك الكريم، بتشكيلة نبوية لأغصانك وجوارحك، ترحل في غمرة الأحوال والفيوضات الرحمانية؛ لتناجي ذا الجلال في خشوع، تعظيمًا وتنـزيهًا، ثم تشير بإصبعك إلى القبلة؛ لتوقد قنديل التشهد من جديد: تحياتٍ وسلامًا، وتوحيدًا، فصلاةً على النبي الحبيب ﷺ، ودعاءً.

الزيت نفسه هو هو، والقنديل نفسه هو هو، لكن النور أصفى وأبهى، والذوق أعذب وألذ! فإذا البصر يرى ما لم يَـرَ، والقلبُ يشهد ما لم يشهد: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]. وإذا الأباريق تَسْكُبُ في أكواب الشوق زلالَ النعمة، ورقراقَ النور.. فلأغصانك أوراق وأزهار، تتجدد مع كل نفَس جديد.. وسبابتُك ما زالت تستزيد من جمال الله، حتى يمتلئ المكانُ مسكًا وعنبرًا.. ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

ويُكرِمُكَ الملِكُ الكريم – في مائدة التشهد الثاني – برزق جديد، ويزيدك – فضلًا عن أطباق التشهد الأول – أطباقًا أخرى من فاكهة الجنة! فيتحفك بقنديل

---

(١) الوَرِكُ: هو ما فوق الفخذ من جهة الدبر.

(٢) رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي المشكاة، وفي صفة الصلاة: (ص ١٩٧).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والدارمي، وابن الجارود، وابن خزيمة، وابن حبان. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، والإرواء، والمشكاة، وفي صحيح سنني أبي داود والنسائي، وفي صفة الصلاة.

نبوي جميل، تَنْبُضُ مشكاتُه بالصلاة على النبي ﷺ؛ فيهتز غصنك لنوره الرقراق، ثم ينشر قلبُك أجنحةً بيضاء، تخفق إلى جنب الملائكة الأطهار وهي تصلي على النبي ﷺ.. فتصلي أنت أيضًا عليه، تمامًا كما هي تصلي عليه؛ إذ ترتقي روحُك بمعراج المحبة، منجذبةً بنور قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ثم تبادر إلى احتساء كأس الحبيب محمد ﷺ المغروفة من حوضه الكريم، وتهتف مرتعش الغصن، خفاق الجناح، فرحًا بإنعام اللَّه، وبإذنه لأشواقك الْحَرَّى أن تصلي على سراج الأمة ودليلها:

- « **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ..!** »[1].

وتمضي في بعث أشواقك إلى النبي ﷺ صلواتٍ وسلامًا، وإصبعك ما تزال تتحرك في اتجاه القبلة، شاهدة على اعترافك بحب المصطفى ﷺ، وأنت جالس بين يدي الخالق الكريم، يستمع إلى بوحك بحب محمد وآل محمد. عليهم الصلاة والسلام .

كانت صلاتك على الحبيب تفور دعاءً، يرتفع سحابُه الأخضر عاليًا نحو الملك العظيم، ثم يسح من لدنه تعالى على روضة المصطفى ثناءً وتكريمًا وتفضيلًا، ورفعةً إلى المقام المحمود، والدرجة الرفيعة،! فاللهم صل وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

(١) قد رويت الصلاة على النبي ﷺ في الصحيحين، وفي كتب السنن وغيرها، بصيغ متقاربة جدًا. وقد اعتمدنا هنا رواية الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ. قال الترمذي بعد إيراد حديثه: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». وقد رَوَى حديثَ أبي مسعود أيضًا مالكٌ، وأحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، بألفاظ متقاربة. وقد صحح الألباني رواية الترمذي في صحيح سننه، وفي صحيح الجامع. وقد روي الحديث عن عدد من الصحابة، كما هو ثابت في الصحاح، وكتب السنن، والمسانيد، وغيرها.

في العالمين، إنك حميد مجيد!، ولِآلِ إبراهيم مقامُ الْمُصْطَفَيْنَ الأخيار، فهم الأنبياء أبناء الأنبياء، وإن محمدًا ﷺ لمنهم، بل هو أعلى ثمرات شجرتهم الكريمة وأزكاها!، فَلَهُ ولآلِه الطاهرين ما كِيلَ لإبراهيم ولآل إبراهيم من الصلاة والتسليم. لك ذلك يا رسول اللَّه.. عددَ من صلى عليك وسلم من أمتك إلى يوم القيامة! مكيالًا ربانيًا من البركات والدرجات.. لم تزل سُحُبُهُ تسقي رياضك، ورياض آلِكَ الأطهار.. قَدَّسَ اللَّه أسرارهم!، فهم سادة الصديقين والشهداء.

فيا أيها الخاشع جلوسًا بين يدي الله!، تنال ما تشاء من كرم اللَّه.. ويحك أكرم نفسك بالصلاة على محمد! فإنما « **البخيلُ من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ!** »[١]. ففجِّر ينابيع الرحمة على أغصانك..! تتدفق عليك شلالاتها من أعالي جبال الصلاة على محمد ﷺ شلالات لم يزل انصبابها يرتفع في السماء؛ ما دمتَ تدعو بالصلاة عليه. ثم يشتد وابل الرحمة الربانية هطولًا على أغصانك الولهى، حتى لا يُبْقِي بها دَرَنًا! ذلك مصداق البشرى النبوية الكريمة لقوافل السالكين:

- « **مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صلَّى اللَّهُ عليهِ بها عَشْرًا!** »[٢]. فإذا الجِنان أبوابٌ مفتحة، يرحب أريجها بجناحك المنهك بمكاره الطريق.. وإذا بطِيبِ الصلاة على النبي ﷺ ينبعث من شجرة الشفاعة فراشات من نور، تطير الهوينى وتحط على غصنك الفقير، فتنبجس براعمه وريقات وأزهارًا، تنتشي فرحًا بكرم اللَّه.

فاقترب يا صاح من خمائل الحبيب محمد ﷺ، فهذه ظلاله يترقرق ماؤها حوضًا نبويًا، تهفو إليه القلوب العطشى يوم الحساب، فلا يدركه إلا الصالحون! فَمُدَّ يدَكَ!، إن كأسًا واحدة من حب الحبيب بعشر أمثالها رحمةً ومغفرةً ورضوانًا..! أليس كذلك يا رسول اللَّه؟

(١) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وأبو يعلى، وابن حبان. وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح غريب ». كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم.

- قال حبيبي: « **مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ!** »[١].

فأزهري يا غصون بكل فصل..! وبُثِّي أريجك بكل أرض!، فكل الأزمنة راحلة إلى اللَّه، وكل التراب عابد للَّه، وحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ!، وزين تشهدها بالصلاة على النبي!، فما زال - عليه الصلاة والسلام - يستقبل صلاةَ الأحبة عليه، وما زالت كلماتُه حُدَاءً يحث السالكين على الاغتراف من بحار الرحمة، والمغفرة، والرضوان..! فيا رسول اللَّه!، هذا فؤادي شوقٌ راحل إليك، ولكن زادي من الصلاة عليك قليل.. فلستُ أدري أتراه يبلغك؟

كان الجواب صدى لكلمة النبوة الناثرة بَرْدَ الماء على حشَا العطشان:

-« **حَيْثُمَا كُنْـتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ..! فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي!** »[٢]. كذا يا نبي اللَّه!

فالصلاة والسلام عليك يا رسول اللَّه..! الصلاة والسلام عليك يا رسول اللَّه..!

ألا أيها العبد الساري في غسق الدجى!، أُمْدُدْ قنديلَك وَقُودًا من زيت المحبة! فلم يزل جَوَاهَا يخفق بقلوب طير، ضربت بأجنحتها عاليًا، راحلةً في النسيم الرطيب إلى ديار الحبيب! ويا حادي القلب!، ويحك لا تبرح تغريدة الصلاة على النبي!، فَلِلْخُفِّ منها خِفَّةٌ ونشاط .

اللهم يا رحمن، إني قد أحببتُ حبيبَك فاشهد! أحببته عبدًا قانتًا للَّه، ونبيًّا يتوهج بنور اللَّه، ورسولًا مبلغًا عن اللَّه!.. اللهم فاشهد!

اللهم صل وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

---

(١) رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والنسائي، والحاكم، وابن حبان. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، والمشكاة، وفي صحيح الجامع، رقم: (٦٣٥٩). وصححه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وصحيح الجامع. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده حسن ».

تلك شهادتك يا عبدُ لدى مولاك، تفيض بأنوارها على داليتك الخاشعة، فتزداد قربًا من مشكاة النور، وتغرف بها من رضاء اللّه.. وهل حب النبي ﷺ إلا بارقة من بوارق حب اللّه؟ بارقة تومض إشراقاتها في سماء السالكين، فتهديهم إلى باب اللّه.

فيا جوارحُ اخشعي، ويا خفقاتُ تبتلي!، ويا جفونُ انثري من دمعك الولهان سخينَ الجوَى!، فقد أشار المليك، وأزف الفراق! فالعياذَ العياذَ! بحَرَم المجير الذي لا يُضَامُ جارُه! فللطريق خارج حصون الصلاة مزالقُ ومكاره، لا ينجو منها إلا من أكرمه اللّه بمقام الجوار!.

أرأيت النبي ﷺ وسط أصحابه يرسم لوحةً بجمالية البيان؟! كان يفسر لهم آية من كتاب اللّه. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. فيرسم حقائقها بكلمات النبوة، ثم يقول: « **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُّوا!، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: «وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ! فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ!، وَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ. وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى. وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ ﷻ. وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ!** »[١].

فاستعذ باللّه يا صاح متشهدًا! وحرك سبابتك خاشعًا، تدعو بها، لتزين صدرك بجواهر التشهد الثاني، وتحصن نفسك بأسراره، عِقدًا ربانيًا يحجب عنك كل مكروه، ويحفظك من كل بلاء.. واجعل أول دعائك من التشهد كَلِمًا نبويًّا، ثم سل مولاك بعدُ ما تشاء:

---

(١) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الشعب، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٣٨٨٧) وفي مشكاة المصابيح رقم: (١٩١). وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

- « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدجَّالِ!** »(١). دعاء تستدفع به الشر كله؛ عياذًا بحصون الملك العظيم، القاهر فوق عباده.

ذاك دعاء سراج الأمة محمد ﷺ، فاعتصم بنوره يا سالكُ عند كل تشهد آخِر، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يُعَلِّمُهُ الصَّحابةَ ﷺ « كَمَا يُعَلِّمُهُمْ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ! »(٢) إذ يمد شعاع الهدى ساعيا بين أيديهم، فيقول ﷺ: « **إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ!** »(٣). « ثُمَّ يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِمَا بَدَا لَهُ »(٤). من خير الدنيا والآخرة.

وههنا تَذْكُرُ جراحَك وأحزانك، وحاجاتك الآجلة والعاجلة؛ فتدعو.. وتذكر أحزان الأمة وجراحها ومآتمها ونزيفها؛ فتدعو.. وتذكر المرابطين في الثغور صامتين، يألمون ما يألمون محتسبين؛ فتدعو.. وتذكر الدعاة المخلصين، والعلماء العاملين؛ فتدعو.. وتذكر الفقراء والمستضعفين، والمؤمنين المحاصَرين؛ فتدعو.. وتذكر أيضًا الطغاة الظالمين، والعتاة المستكبرين؛ فتدعو.. وتذكر، وتذكر.. فتدعو، وتدعو، وتدعو..!

وما تزال تتشهد، مشيرًا بسبابتك تدعو بها، جالسًا جلسة الأصفياء عند الملك الكريم.. وبابُ هِباته مفتوح عليك، ينثر من إنعامه، بكل دعاء كرامات وحسنات!

فسبحانه وتعالى من رحمن رحيم! وله الحمد والثناء، كما ينبغي لعظيم فضله وجمال إحسانه!

- كان النور قد غمر جناحيك ريشةً ريشةً، فأشرقت روحك في روضة وهاجة

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه النسائي. وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي صحيح الجامع.

الأريج، دفاقة العبير، فتعكس منها لؤلؤةُ قلبك شعاعات صافية الأسرار، طاهرة الخواطر والأنوار..!

ويأذن الملك لعباده المخبتين بالانصراف من محراب الصلاة، وهم جلوس متبتلون.. قد غمرهم بأنوار الرضى والقبول.. وهنا قبل أن يخرج العبد بالسلام يستحضر في شعوره أطياف التوابين والمتطهرين، وصفوف المتعبدين في الأرض وفي السماء، ممن يرى وممن لا يرى، يبصرهم بعيني روحه الصافية، جالسين حواليه، عن اليمين وعن الشمال، يتضرعون إلى اللّه على هيئة التشهد. « **ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله** »(١). فقد كان رسول اللّه ﷺ يَلْتَفِتُ بوجهه الأغر هادئًا؛ كي « يُسَلِّمَ عَنْ يَمِينِهِ:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه!

حَتَّى يُرَى بَـيَاضُ خَدِّهِ الْأَيْمَنِ! وَعَنْ يَسَارِهِ:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.

حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ الْأَيْسَرِ! »(٢).

وتفتح عينيك على عالم الأشباح والرسوم، فلا تبرح مكانك حتى تذكر ربَّك بُعَيْدَ الصلاة؛ جبرًا لما ضاع لك منها في جيوب الشرود، وتسديدًا لقلب مُقْبِلٍ على خوض أدخنة الحياة، بعدما غاب عنها في حضور حَيٍّ مع اللَّه، حضور طوى في شهوده مقاييس الزمان والمكان! ثم عاد إلى حدود كيانه.. فتوكلْ على مولاك يا ذاكرُ! مسبحًا، وحامدًا، ومكبرًا، ثم متشهدًا! مسترشدًا بهدي الحبيب محمد ﷺ؛ إذْ قال: « **مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والأربعة، والحاكم، وابن حبان، وابن خزيمة. وقال الترمذي: « حسن صحيح ». وصححه الألباني في صفة الصلاة: (ص ٢٠٤)، وفي الإرواء، وصحيح السنن الأربعة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « صحيح على شرط مسلم ».

ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ!»(١).

ثم تنطلق بعدها خفيف الجناح مشرق الروح، ثابت العزيمة، لتدخل غمار الحياة الدنيا بنشاط جديد، وبقلبك شلال تتفجر طاقاته عند كل عمل، تُصلح به معاشك أو معادك، تسعى قوي الأمل في اللَّه، لا تضع يدك على عود ذابل إلا أَوْرَقَ صلاحًا واخضرارًا بإذن اللَّه، وأزهر بركاتٍ بتوفيق اللَّه، ولا تفتح بابًا إلا انفتح عن رزق حسن، وسلام من اللَّه، ولا يضيق عليك دربٌ في طريقك؛ إلا فُتحت لك بَدَلَهُ ساحاتٌ إلى الخير على سَعَةِ السماء! ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٣].

وقد ينخسك الشيطان في طريق كسبك؛ فتطرده قوي الجنان، عالي الهمة، فيفر منك مذعورًا..! ثم لا شك هو يعود، لكنك أنت أيضًا تعود! تعود أقوى وأجلد على حربه! حتى إذا غُمَّ عليك تَعَبًا من ضجيج الحياة؛ أنقذك الأذانُ قبل فوات الأوان! فرجعتَ إلى سِفَارِكَ الجميل، ومنتزهك البهيج، و.. وكنت على موعد جديد مع اللَّه!

تلك الصلاة بنورها وبهائها.. سَفَرٌ في مقامات الجلال والجمال، وسياحةٌ للروح على هيئات ذات أحوال، ومشاهَداتٌ لكرامات الأنس والرضى، تلقيًا عن اللَّه ذي الجلال!

تلك الصلاة.. رياضة الأنبياء والصالحين، ومن اقتفى آثارهم من السالكين، رياضة تعمر القلب والجوارح بالحب والعافية والسلام.

***

(١) رواه مسلم.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

- مطالع الكوكب الدري
- في منازل ناشئة الليل
- مع صفوف الملائكة
- بهجة الجمعة

مطالع الكوكب الدُّرِّيِّ

يا أيها الفلك السيار عبر مواقيت الصلاة..! هذه أزمة التجلي في مَدَارِكَ الفاني، مطالعُ أنوار، تشرق على قلبك السالك بمقامات التحرر من معتقل العمر.. فتهبك أحوال ذوق لكوثر الحياة الفياض.

خمسة مطالع يا صاح، كافية لإمداد سمائك بتجليات من نور دري، لا تتوقف أنهاره أبدًا.

فالبِدارَ البدارَ يا سالك بأوقات المطالع..! فقد جمعتْ كل الخير من تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال.. عجبًا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبًا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]؟

كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتدبر!

الإنسان.. هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفلكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعًا لا كرهًا.. ولكن؛ لو كان يدري..! إن هذه الآية العظيمة تضع الإنسان في مداره الطبيعي؛ ليسلك سبيله إلى ربه ذللًا.. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود: بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه: إنسان!.. فتأمل! وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية. فالفجر بدء،

وبه تبدأ الحياة.. وما بدأ شيء إلا لينتهي! والفجر اسم وقتٍ قبل أن يكون اسم صلاة! لأننا إنما نعبد اللَّه بالوقت.. وإنما الوقت هو الصلاة! لذلك كان المنادي الأول ينادي لتسجيل ميلاد اللحظة الأولى من لحظات النهار، صلاةً للَّه رب العالمين، الذي أنعم عليك بالبدء.. أنعم بالحياة! فاملأ رئتيك يا سالكُ بالنَفَس الأول من صلاة الميلاد.. ميلاد الحياة! ويا لخيبة من نام عن شهود النبع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماءً مسنونًا..! وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين السابقين؟

ويدور الكوكب العابد في مداره هونًا؛ حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء؛ اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال، وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى.. فزوال الشمس هو بداية العد العكسي لعمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يَعُدُّ عَدًّا تصاعديًّا؛ حتى إذا زالت الشمس، وامتد الظل قليلًا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار؛ ففرارًا إلى اللَّه فرارًا! تَشْهَدْ منتصف عمرك صلاةَ ظُهر، فما بقي أكثر مما سلختَ من أنفاس! ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدًا، لا شاردًا عن باب اللَّه.

حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها؛ دخل العصر، وبدأ ينذر بقرب الأفول..! وما العصر إلا إنذار لك يا سالك؛ أن لم يبق لك من العمر إلا لحظات.. وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر! ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟

والعصر محطة فلكية أخرى، ينعصر فيها الزمن انعصارًا؛ ليشهد تحول الشمس إلى استراحة الأصيل.. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام، ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة..! لحظة أو لحيظة - لا تدري كيف؟ - ويكون الغروب.. فيا لأشجان الغروب..!

هنالك تشهد كيف يموت الضوء.. بل كيف تموت الحياة! وتصلي.. وإنما المغرب غروب؛ تلك هي الحقيقة الأولى التي نطق بها الفجر، مذ تفجر عن

أنواره، لو يبصر الناظرون! فما البدء إلا علامة للختام.. فيا عبدُ..! ما أخرك عن شهود حقيقتك؟ هذا الكون كله الآن يغرب.. ولا عودة للحظة ماتت.. لا عودة لها أبدًا! فالمغرب محطة فلكية من تحولات الأزمنة، تشهدها صلاةً خاتمةً للأضواء، وفاتحةً للعتمات.. فإنما هي لحظة واحدة ويزحف الظلام!

وما العِشاء إلا عَتَمَةٌ! عتمة تدلج فيها إلى اللّه بالعِشاء صلاةً ساريةً، ولولا قنديلها الجميل لما كان للساري في ظلمة الليل من نور! فإنما العِشاء من العَشَا: حيث العتمة تمنع إبصار العين إلا قليلًا، فأوقد تراتيل الصلاة يا صاح، تُشْرِقْ مصابيح الروح بمسراك، أمانًا ملائكيًا يحفظك حتى الصباح!

تلك إذن هي الصلوات الخمس: أوقات للتحولات الفلكية الكبرى.. نَعُدُّهَا بالصلاة عدًّا!

ألم أقل لك يا صاح: كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. نعده بالصلاة عدًّا؟

ذلك أن الأوقات الخمسة رموز لليوم كله: فجرًا، فظهرًا، فعصرًا، فمغربًا، فعشاءً..! فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك..؟ فالوقت كله إذن هو الصلاة..! أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمر كله، قلت: العمر كله! وإنما فرض اللّه الصلاة عمرًا، لا حركة ولا سكنة إلا صلاة! ألم يفرضها ﷻ أول ما فرضها خمسين صلاة؟ ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات! فإنما الحسنة في ديننا بعشر أمثالها!

أن تعبد اللّه بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الأشهر إلا أيام، وما الأيام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان...! فما عمرك يا ابن آدم؟

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ   إِنَّ الحيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ!

هكذا إذن؛ أن تعبد اللّه بالأوقات الخمسة يعني أنك تعبده بالعمر كله، تنثر مهجتك بين يديه تعالى وقتًا وقتًا، أو قل: نبضًا نبضًا، ما دام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونًا.

أما أن يفوتك وقت فيعني أنك قد خرجت عن مدارك..! فانظر أي حافة من الفراغ العاصف تنتظرك؟ وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار؟

أن يفوتك وقت: يعني أنك فقدتَ جزءًا من العمر، وفاقد الجزء فاقدٌ للكل لزومًا.. ومن ذا قدير على استعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعل الصلاة: إذا كان في الوقت (أداء)؛ وإذا كان بعد الوقت (قضاء)؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدًا! هل يمكنك استعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتينَ؟ ولقد صدقوا في الحكمة القديمة إذ قالوا: (لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين!)..

لو لم تكن الصلاة وقتًا؛ لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أمَا وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك (تعوض) تعويضًا، وما كان العِوَضُ - بعذر أو بغير عذر - ليكون كالأصل أبدًا..! لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت!.. فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصبح، ثم طلبته، أتكون حينئذ تتعشى أم تفطر؟ طبعًا إنك لن تتعشى عشاءك ذاك بَعْدُ أبدًا، ولو كان الطعام هو عين الطعام! لسبب بسيط هو أن المسألة وقت! ولا صلاة تفوت فتؤدَّى بعد ذلك! وإنما فرصتك الوحيدة هي أن تقضي إن جاز لك قضاء.. وشتان شتان بين أداء وقضاء!

ألم أقل لك: كان الوقت فكانت الصلاة..! وإنما الوقت هو الصلاة!

فابسط كفك يا صاح حتى لا تنسى! ثم اعقد أصابعك الخمسة! الواحد تلو الآخر؛ لعد التجليات الوَضَّاءَةِ ربيعًا ربيعًا!

***

تجليات المطلع الأول

هذا الحداء الهادئ، الصادر عن أول طيور السحر، ينساب عذوبةً وجمالًا.. عبر نسيم مسكي الأريج..! هل تشم شيئًا؟.. وحدهم المحبون الآن يشمون؛ لأنهم الساعةَ يَقِظُونَ.. قد غادروا فُرُشَهُمْ مع آخر هديل الليل السَّاجِي، فنهضوا يشهدون مولد النفَس الأول لوردة البكور..!

من أديم السواد الغامق الجميل، تتشكل براعم ذات إشعاع رمادي، ثم تتفتح وُرَيْقَاتٍ تفيض زرقةً عميقةً، فتنتشر قليلًا في عرض الأفق.. ثم تنمو الوردة متفتحة في خفاء، شيئًا فشيئًا، تبث في الفضاء أنفاس الحياة.. وما هي إلا لحظات؛ حتى يفيض قلبها النابض على الكون كله بنور فضي، يتدفق مثل الشلال، أو مثل ذَوْبِ البلور الصافي؛ إيذانًا باقتراب وصول الخيول الأولى لموكب الشمس!

كان هذا الغصن السالك يبدو - في تجليات الزرقة الأولى - كشبح أدركه صبح السُّرَى على أعتاب ديار الحبيب.. وكان السكون رائقًا ورائعًا.. لكنه سكون يخفي بقلب المحب شوقًا قلقًا، كان كأنما ينتظر شيئًا.. وهو يشهد أفول آخر النجوم.. لحظة؛ ويكون الأذان.. فينفجر سيل الحياة الفضي، نهرًا يتدفق بضوء بهيج، يمسح شيئًا فشيئًا غبش الوجود!

ويصدح الحمام الولهان، يغرد وهنا بصوته الشجي:

- الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم..

ويمضي النداء صدى يمتد في الفضاء، ينثر الخير والسلام حول خيام المدلجين..

- كانت الدوالي في صفوف الصلاة متشابكة الأغصان، تنسج خمائل من نور، وهي تعانق بأجنحتها الأرضية أجنحة ملائكة السماء؛ احتفالًا بقرآن الفجر.. فاشهدي يا خوافقَ السالكين جماليةَ البكور الأولى!. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]

هذا أوان البهجة العلوية، واحتفال الأرواح بالنور الملائكي، فزاحمي يا ضلوع المحبين قناديل السماء! فإن الملائكة تغمر الصفوف بأنس الربيع، فتتفتح القلوب أحوالًا، تدور حول جداول الصدق واليقين.

هنا صلاة الفجر، فاملأ كأسك يا صاح، بترياق الشهد المشهود..!

كان أبو هريرة ﷺ فاتحًا قلبه وبصره، وهو يصغي لخرير النور يترقرق من مشكاة النبوة، فيعمر المسجد بقناديل ينبض زيتها خوفًا ورجاءً..! ثم ينثر الصحابي الجليل جواهر الدر أشعةً تَعْبُرُ فوق رؤوس الأجيال:

- «سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: « **تَفْضُلُ صَلاَةٌ فِي الْجَمِيع عَلَى صَلاَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً!** »، قَالَ: « **وَتَجْتَمِعُ مَلاَئِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ!** ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: « **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** »!(١).

فواحسرتاه عليكَ أيها الطين الخامل في نتونة العلق! كيف تبالغ في قتل حياتك، وخنق أنفاسك عن شهود طلائع الفجر؟ كيف تنفي نفسك عن رياض الحياة الريانة بمدائح الطير الصادحة من مشارف الشلال الرباني؟ وتغيب.. آه! فتغيب عنك الحياة! ولم يأت قط من أتى بعد فوات الأوان! فعلى أي جنب تنام بعد ذلك أيها الإنسان؟

نعم! « **وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأتوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا..!** »(٢).

- كيف ذلك يا رسول اللّه؟

- « **مَنْ صَلَّى صَلاَةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ!.. فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ؛ يُدْرِكْهُ ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ!!** »(٣).

ألا فَامْلَئِي نَوْحَكِ يا حمامةَ القلبِ شجًى وشجنًا! وانثري روحك أنفاسًا فجرية

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

اللون بين يدي مولاك! فَرَقًا أن يغمر سيلُ الطين آذانَ الأغصان الوَسْنَى، فيمر أريج الحياة وهي غائبة في غيابات اللحظة الموات!

وللتجليات الأولى من مطلع الفلق البهيج ضفتان من ضفاف الزمن الأرضي.. مَن استفتح الصلاةَ بينهما ولج إلى زمن الغيب الثر؛ فنال من عطاء ربه سر الحياة يومَه كاملًا..! فاغمر الخطوات إلى صلاة الصبح يا عبدُ بشوق الحبيب! وانقل الأقدام على خفقات القلب الفواحة أنسًا ورجاءً؛ ! تنل من فيض المولى كرامات الصالحين! وأي كرامة أعظم من إحياء ما قد فات؟ أوليس « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ »؟[١]. فأي كوكَب هذا الذي يَنْسَى استدرارَ نور اللَّه عند المطلع الأول؟ ويشرد عن هُداه بمداره الراحل إلى اللَّه؟ إذن؛ يقضي أبدَه في ظلمات اليوم الرهيب!. فيا يا أيها الطير المتبتل خوفًا وطمعًا،! أوقد مصابيحك فجرًا! إن الحبيب محمدًا ﷺ وعدك بشائرَ نورٍ كامل، رَافدُهُ زيتُ الخطوات المدلجة فجرًا إلى الصلاة.. إنها الخطوات الخافقات صبحًا، المَوريات قدحًا.. تتفتق بهجةً وسرورًا يملآن عليك المكان والزمان! فاغرف من بشائر النبوة يا صاح: أن « **بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »[٢] فسابق ظلالك يا غصن إلى مقام النور! فإنه ليس دون البشارة إلا الخسارة؟ فالجمال السرمدي بابه قوسُ بارقة في ظلمة مختصرة، لا يستثقلها إلا من غَفا عن غدران النور النبوي، فضاع في التيه! و« **ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوها ولو حَبْوًا..!** »[٣].

كذا إذن؟ فصلاة اللَّه وسلامه عليك يا رسول اللَّه!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، عن بريدة. ورواه ابن ماجه، وابن خزيمة عن أنس، ورواه الحاكم عن سهل بن سعد، وقال: « هو على شرط البخاري، ومسلم ولم يخرجاه » وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٢٨٢٣)، وفي صحيح سننهم، وفي صحيح الترغيب.

(٣) متفق عليه.

ركعتان من القرآن الصادح تفريدًا وتغريدًا، بعد ركعتي نافلة؛ كافية لإمداد جناحك يا قلبي بمقام البسط، غُدْوَتَكَ كلَّها..! فَاجْنِ ما تشاء من زاد الطريق؛ ما دمتَ في حدائق اللّه الفسيحة! وارتق شجرةَ النور العالية مرتلًا! فهذا مَقَامٌ تطول فيه القراءة، حتى إذا أسفرت السماء عن ضياء النهار؛ كنتَ جاهزًا لخوض غمار الحياة، بجناح ملؤه العزم القوي، والأمل الكبير.

* * *

تجليات المطلع الثاني

ها أنت ذا بعد غدوة لاهثة في معترك الحياة؛ تؤوب إلى الظل في الظهيرة.. وقد علا أجنحتَك الغبار، تتنفس فتنبعث من جوفك رائحة الحرائق؛ مما ألهب جوانِحَك طيلة هذه الغداة، من أعمال ذات شغب، وأموال ذات لهب.. كم كنت تتقي ألسنتها يا عامل، وأنت تركض بفرسك بين جيوشها، وما كان فرسك مُهْرًا ولا ربه غَمْرًا؛ ولكن لكل جواد كبوة، ولكل فارس هفوة!

وتعود جريح القلب، ثقيل الجناح، تستريح من حر الهجيرة، تبحث حائرًا عن جرعة ماء؛ عساك تدخل المعركة من جديد..! فيومك لما ينته، والمدافعة ما تزال حامية الوطيس! ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ثم ينتشلك الأذان من حيرتك، وتصغي لنداء الصلاة.. كان الصداح ينبعث من شلال صافي الأمواج، فتقترب شيئًا فشيئًا من بوابة المسجد، حتى تحط بجناحك على غصنك المرهق، وتدخل تحت دفقات الشلال.. كان الوضوء إحياءً جديدًا لأنفاسك الحَرَّى، حتى إذا أكملت تلميع غرتك وتحجيلك؛ تفتحت الأزهار من أفنانك طيبة الأريج.. وهب الشوق بقلبك مندفعًا إلى لقاء الحبيب!

الشمس الآن تزول عن وسط السماء قليلًا.. مؤذنة بموعد التجلي الثاني.. فتنطلق طيور الهاجرة تحت أشعة الشمس، مبللة الريش بماء الوضوء.. كانت أشواقها تملأ

عليها كيانها، فمذ توضأت ما عاد فيها عِرق يشعر بلسعات القيظ، ولا بِحَرِّ الهجير.. وللوضوء رشح البرد والسلام على الأغصان.. ثم تخفق الأجنحةُ مُهَجِّرَةً إلى صلاة الظهر..

ألا تعسًا لكَ أيها الجناح القابع في ظلك النتن! ترزح بأوساخك بعيدًا عن كوثر الصلاة! فما زلت تملأ بطنك بطعام ثقيل، وتخدر خشبتك بنوم ثقيل.. فتركن عند هاجرتك إلى حزب الشيطان، تأكل من ماله لهبًا ودخانًا!

فوا أسفاه على أجنحة ضلت طريقها إلى قُوتِها! فلم ترحل إلى استدرار النور ساعة الهدى!.. وللتهجير إلى صلاة الظهر أحوال وأذواق، تفتح للبصر المرهف أقواس الآفاق؛ فيولد الربيع بالغصن السقيم من جديد.. آهٍ صاح! « **وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إليه!** »(١).

ألا ما أحوجك الساعة يا سالك إلى لحظة وصالٍ، تستمد منها القوة لخوض غمار الحياة! لحظة من تجليات الملك اللطيف، على فؤادك الضعيف..! فغداة واحدة تضرب في عمق اللهب والدخان، كافية لإتلاف ما رشح من أنداء الفجر، على أوراق غصنك العابد..! فيا صاح عد إلى مولاك! إن أقواس الصلاة قناديل تشرق من آفاقها، ربيعًا لا يفنى أبدًا.

ولصلاة الظهر جمال الرشفة الثانية من كوثر النور.. تعود إذن، والعود أحمد، تعود والحنين يملؤك إلى ما عرفت، لا إلى ما لم تعرف، وإلى ما ذقت، لا إلى ما لم تذق، لكن بحال غير الحال، وبوجد غير الوجد، ولكل يوم ملف وحساب! فقد كانت صلاة الفجر محطة انطلاق الجناح الراجي فضل مولاه، حتى إذا عَرَكَ ما عَرَكَ، وخاض ما خاض، عاد في الظهيرة يابس العود، يرجو رحمة مولاه!

هذا صدر النهار، فاجعل من صلاتك يا عابد أربعة معارج! تبث فيها حزنك

---

(١) متفق عليه. ومعنى التهجير: التبكير إلى صلاة الظهر أو الجمعة. من الهجير أو الهاجرة، وهي: ساعة منتصف النهار، عند اشتداد الحر.

وشكواك إلى اللّه سرًّا، فالطريق أمامك تَهُبُّ عواصفُها من كل جهاتك الأربع! فطهر ثيابك بالنور التام تطهيرًا، عسى أن تكمل السير سليمًا إلى واحة اللّه!

وتفتح قوس الصلاة؛ فتشرق التجليات من جديد، ويشب البهاء في ومضة الكوكب الدري، عند مطلعه الجديد!

كان اتصالك بمولاك في واحة الظهيرة فرصة ثانية؛ لاستدرار أنوار التأييد والتسديد، تضمد بها الجراح، وتتزود لغوائل ما بقي من عراك، فادخل أعتاب الرحمة يا صاح! وَارْقَ إلى مقام الفقر! مستنصرًا باللّه، فإنه هو الملك الرزاق ذو القوة المتين، ادخل إليه عبر أربع ركعات كاملات؛ عسى أن تستكفي بهن لاستدراك ما فات، والتأهب لما هو آت.

❊ ❊ ❊

تجليات المطلع الثالث

الشمس الآن تنحني في الفضاء راكعة، فتنتشر الظلال مسبحة في كل مكان، فلكل غصن أو طلل ظل في الأرض، طوله مثل قامته وزيادة، حتى الأعشاب الصغيرة بسطت على المراعي نقوشًا من لون الهدوء.. فكل شيء يعود إلى سكونه.. لكنك وحدك يا سالك ما زلت تضرب في صخب الحياة، وتدافع أدخنة اللهيب هنا وهناك، حتى إذا غِيضَ نبع الروح بقلبك، ونضب الماءُ المستسقَى من صلاة الظهر؛ أحسست بأبخرة العطش اللاهب تصّاعد من فؤادك.. فتتطلع بعينيك الداعيتين إلى السماء؛ تستدر الرحمات.. وما هي إلا لحظات حتى ينهمر الأذان، وتؤوب إلى المسجد من جديد..!

كان الكوكب يتحرك هذه المرة بصعوبة، فأدخنة الأسواق قد كَثَّـفَتْ سُرَادِقَهَا، وأثقلت فضاء المدار بالغبار، فحاصرت أجنحةَ المحبين..

فالعصر وقتٌ يشتعل فيه وطيس المال والأعمال، فلكل دقيقة وزن ساعة من زمن الغداة..! وللشمس اعتصار في وهج العصر، لم تزل تذوب فيه قطرةً فقطرةً؛ حتى

تفنى في الغروب.. طَرْفَةُ غفلةٍ واحدةٍ منك يا سالك بعد الأذان؛ ويكون نهارك قد فات! فلا عصر بعده إلى يوم الحساب!

فألقِ ما في يدك.. وانفض بنانك من رماد الحياة الفانية! وادخل شلال الفلاح؛ فالكون كله يصدح الساعة: أن حي على الفلاح! حي على الفلاح! ثم ترشك بيانات النبوة رشًّا مباركًا، يروي جَفَافَ روحك الحزين:

- «إن هذه الصلاة - يعني صلاة العصر - عُرضت على من كان قبلكم فضيعوها! فمن حافظ عليها كان له أجرُه مرتين! ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهِدُ»[(١)]. والشاهِدُ: أول نجم يبزغ بُعَيدَ الغروب، يشهد على موت النهار وعلى ميلاد الليل.

أجيال من الأمم قبل هذه الأمة كانت تقيم الصلاة، أغواها الشيطان فأغفت لدى بارقة العصر، فضلت قوافلُها الطريق!

وللعصر احتفال مثل احتفال الفجر الملائكي.. فواحسرة على من فاتته فتوحات النور! فيا أيتها الأغصان العجفاء، أَوْرِقِي لبهجة الأوراد نَدًى وريحانًا! فإنه: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَة بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ. ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ - فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ!**»[(٢)]. فيا أيها الباني حصن الزخرف من خفقات العمر الفاني! لك اللحظةَ أن تُخَلِّدَ مِعْمَارَكَ أو أن تنسفه نسفًا! فوقفةٌ خاشعة عند العصر بين يدي ربك ﷻ تدركها قبل ذبول الشمس، تفتح لك باب الخلود! وأما «**مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ!**»[(٣)].

أَوَ تنسى..؟ عجبًا! وأي عين هذه التي تغفو؟ وأي ذاكرة هذه التي تشرد؟ وأي قلب

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

هذا الذي يلهو عند اللحظة الحاسمة؟ كيف؟ وها إنَّ « **الذي تَفُوتُهُ صلاةُ العصرِ فكأنما وَتِرَ أَهْلَهُ ومَالَهُ!!** »(١). ألا يا طير جرد فؤادك من دخن التراب! وانفض جناحك من غبار الغفلة وارحل إلى مولاك!.. هذا زادك قد نفد، والطريق أمامك صَحَارٍ وقفارٌ.. والمولى يدعوك الساعة إلى مائدة تدلت أغصانها دانية القطاف: عراجين وضاءة، وعناقيد سيالة، تروي بنورها الرقراق حَشَا الفؤاد اللاهث في قيظ النوى والسراب! فَارْوِ حدائقَك أُنْسًا وتغريدًا قبل بكاء الأصيل..!

هذا باب الوصول الخفي، تفضي المناجاة فيه سِرًّا - عبر أربع ركعات - إلى آخر درجة من معراج النهار، بدءًا بالفجر حتى صلاة العصر، ثم تُكَبِّرُ فإذا بك ساجد لدى الأعتاب العليا.. هنالك تنهل ببصرك من جمال اللَّه، لا تُضام في وصال المحبوب شيئًا!

كان جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ يتذكر إشراقات التجلي ذات ليلة قمراء، بمجلس عزيز من مجالس رسول اللَّه ﷺ، ثم ينشر أزهار المحبة على طريق اللَّه، وسط حلقة من التابعين، فهو يقول:

- « **كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ! لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ! فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا!** » يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ. ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٢)

وتومض في القلب السائر بشارتان: قصورُ الجنة، ولقاءُ الملِك الكريم!

هنا صلاة العصر! هنا واسطة العقد الدُّرِّيِّ، ساعة اكتمال البدر عبر طول المدار.. فارشف كأسك يا عابدُ وذق معنى صلاة العصر! ثم اركب جناح الروح، ودُرْ عبر مواجيد

(١) متفق عليه. (وَتِرَ) أي: فقد. (٢) متفق عليه.

العمر، قائمًا في صفوف السالكين، قانتًا للّه رب العالمين.. وادخل فضاء الربيع الأبدي مرتلًا: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] .

* * *

تجليات المطلع الرابع

ويطلع الشاهد في السماء، نجمًا فضي النبضات.. كانت الشمس قد توارت بالحجاب، فأقفلت أسرابُ الطيور رائحةً إلى أوكارها.. وقد سالت ألوان الشفق الغارب على أجنحتها، طهورًا غيبي المذاق، يفتح نظر القلب مباشرة على عالم الآخرة..! كل شيء يرحل في هذا الوجود؛ فلا غدوة بغير رواح..! كان النهار عمرًا مصغرًا بكل مراحله، مذ تفتق برعمًا فجرى اللون؛ حتى شب، ثم شاخ.. فمات!

وتؤوب إلى ذاتك بعد سكون عاصفة النهار، تجر جناحك المتعب، وتصغي إلى شَجا قلبك الجريح، وهو يودع ورقة أخرى من أوراق غصنه الصغير، بخفقات تذوب تترى في الشفق الحزين!

كان الأذان نسيمًا طيبًا، يحدو الفؤادَ الجريح بِرَوْحِ اللّه إلى رياض اللّه، فيمتلئ الغصن ندًى من رشحه الكريم، ويهتز أملًا وشوقًا إلى عفوه الحليم، ألا و﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. فتشعر بالراحة تنساب خفَّةً وطمأنينة بين جناحيك، وتنطلق الحناجر مغردة في سيرها؛ بدعاء المساء الجميل، تدعو منيبة إلى الله: « **أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا. رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ!** »[١]. فيا قلبُ فرارًا إلى الحي القيوم،

---

(١) رواه مسلم.

الملك الذي لا يزول..! وادخل على مولاك ممسيًا، من باب صلاة خاتمة النهار وفاتحة الليل..! فهذه لحظة فاصلة بين عالمين، لكل عالم منهما أحواله، وتجلياته، وأذواقه.

الغروب.. لحظة لها ما لها في مواجيد العبد السالك.. فكيف أنت إذ تنثر دمعتي فراق ولقاء على صفحات عمرك الراحل..؟ كيف أنت إذ توقد قنديل الصلاة محتفلًا بغروب النهار، وأنت ترتل الشَّجا بين خوف ورجاء..؟

وتتميز اللحظة بصلاتها الثلاثية، تختم بها مدارج النهار، لتفتح مدارج فضاءٍ آخر، من الجهة الليلية لمدارك. فاختم يا عبدُ نهارَكَ مُوترًا بصلاتك، فإنما جُعل الوتر خاتمًا. و« **صَلاةُ المغربِ وِتْرُ النهارِ** »(١). وإن عملًا لا ختم عليه لَهُوَ عملٌ أبتر!

- اللّه أكبر..! ويصدح الطير بالقرآن جهرًا، يعلن للناس حقيقة الكون الغاربة أيَّانَ مرساها.. فَتُحَلِّقُ الطيور سِرْبًا سِرْبًا، تجأر إلى مولاها، عساها تستنير برضى وجهه الكريم، ويتحول المحيط الكوني من مشرقه إلى مغربه تنبيهًا للغافلين.. فتأفل أجرام وتبرز أخرى.. وتشهد أن لا شيء يبقى، فلكل شروق غروب.. وإنما الباقي هو رب المشارق والمغارب! ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥].

ويوقد العبد قنديل الصلاة، مستأنسًا بنور اللّه.. وتبقى أجنحة أخرى ظلت تعبد أشعة الشمس في معبد المال والأعمال، تخبط ليلَها حيرى بغير أنيس!.. وللمحب صوتٌ شجي يتدفق بالقرآن، فينتشر الهدى أنوارًا.. تدعو الحائرين إلى اللّه: يا أيها الجناح الشاردُ هذا نهارك قد أفل! وما يدريك؟ لعل الدور عليك! فهذه أوراق غصنك الفاني بدأت تتلاشى! فاسلك فضاء الأجنحة الآيبة إلى اللّه قبل فوات الأوان! واشهد

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والطبراني في الكبير، وابن أبي شيبة، كلهم عن ابن عمر. ورواه أحمد أيضًا، وابن حبان، وابن خزيمة، والطحاوي في « معاني الآثار » عن عائشة. وحسَّن الألباني رواية الطحاوي عن عائشة في السلسلة الصحيحة، بينما ضعف رواية الترمذي. وصحح رواية الطبراني وابن أبي شيبة عن ابن عمر في صحيح الجامع. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط عن رواية أحمد عن ابن عمر: « رجاله ثقات رجال الشيخين ». والخلاصة أن عبارة هذا الحديث صحيحة عن النبي ﷺ.

مع العباد المهتدين توبة الغروب! ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] .

ويدلج المحبون إلى الله هونًا، تحفهم قناديل الأنس، ويحدوهم جمال الرجاء..

❋ ❋ ❋

تجليات المطلع الخامس

الآن يطفو سواد الليل الساجي على آخر آثار النهار، فيمحو الشفقَ الدامع - على المغارب، ويزرع الأفق الأعلى نجومًا درية الوميض، ثم يبدأ احتفال السالكين بانطلاق لحظة السُّرَى.

كان الليل قد سكن، وآوت الأنفاس إلى كهوفها، وانقطعت أصداء الضفادع إلا قليلًا.. وللأجساد الساعةَ ارتخاءٌ على أرائك الراحة، من بعد ما مسها من لغوب النهار، تترقب عَشاءً ساخنًا، أو تنثر ثرثرتها في سمر المتعبين، أو تتملى أخبار الدنيا من شاشة أو مذياع، في كسل يعتقل أجفانها الذابلة شيئًا فشيئًا؛ حتى تستسلم لمنامها! أما الذاكرون العاملون فهم القليل.. !فأي نداء هذا الذي يمكن أن ينهضها الآن؟

وتغوص في ذاتك يا عبد في ارتقاب وقت الصلاة؛ مسترجعًا صور المعارك من الغداة حتى المساء.. تقف عند هفوات القلب، وكبوات الخطى، فتشعر بالأدران تثقل جناحك، وتعلو سَعَفَكَ المخدَّر بالتعب! فتتوق إلى شلال الرحمة، وجداول الغفران.. حتى إذا غمر الأذانُ دلجة السالكين بنوره؛ قمتَ تلتمس بشائر الرسول الحبيب ﷺ، المتجلية على قلوب المحبين في عتمات الطريق.. فتنهمر الكلمات النبوية على غصنك برذاذ من نشاط الروح أنْ « **بَشِّرِ المشَّائينَ في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة!** »[1].

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه.

كانت الأغصان قد استراحت إلى جذوعها، فذاقت طعم الاسترخاء؛ بما علاها من غبار النهار، ولكن يأبى عليها اللّه إلا أن تنام طاهرة الزهور، ريانة العروق، ندية الأفنان، فيلاحقها صدى النذير بالحقيقة العميقة، مخرجًا إياها من دلجة اللحظة إلى فضاء النور الضارب في أعماق الكون:

- اللّه أكبر.. اللّه أكبر..!

وتتواتر صور الحقيقة الكبرى في نشيد الأتقياء.. ثم يبادر المقرَّبون بترك الأوكار، ونفض السمر.. وتنساب الأسراب إلى قناديل الصلاة من جديد.

وإنما وقت التجلي الخامس، في مدار العبد السالك، هو عمق الليل الساجي، يبدأ منه عفو اللّه بعد مغيب الشفق، ويكتمل منه فضل اللّه باكتمال ثلث الليل الأول، أو نصفه، وللحبيب المصطفى ﷺ إشارةُ عِلْمٍ للمحبين. قال الصحابي الخدوم أنس بن مالك رضي الله عنه:

أَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةَ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ! ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ قَالَ:

« قَدْ صَلَّى النَّاسُ وَنَامُوا..! أَمَا إِنَّكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرْتُمُوهَا! ».

قَالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِيصِ خَاتَمِهِ لَيْلَتَئِذٍ! (١).

فللذكرى الطيبة ارتسامٌ جميل بقلب العبد المحب، حتى بريق الخاتم الفضي في يده - عليه الصلاة والسلام - كان له حظ من الحنين! وكيف لا؟ وهذا الصحابي المشوق يملأ عينيه من أنوار رسول اللّه ﷺ، ويتلقى منه كلمات النبوة الطاهرة بكل جوارحه.. فلا يغيب عن قلبه شيء من هيئة النبي عليه الصلاة والسلام.

وينثر المصطفى ﷺ حكمة الخير في سماء الأمة، نجمًا دريًا يضيء إلى يوم القيامة؛ هدًى للمتبتلين: « **لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ!** »(٢).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: « حَسَنٌ صَحِيحٌ ». وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي=

- فما سر ذلك يا رسول اللّه؟

- قال: «**لأَنَّكُمْ قَدْ فُضِّلْتُمْ بِهَا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَلَمْ تُصَلِّهَا أُمَّةٌ قَبْلَكُمْ!** »[١]. اللّه أكبر..! فيا لجمال التفرد في عبادة الملك الودود! ويا لكرم تفضيله لأمة الغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ! فَانْهَلْ من جداول إحسانه يا صاح أنوارًا فريدةَ المنابع! واسجد لمولاك في غَسَقِ الليل شاكرًا لأنعمه! فلصلاة العِشاء تجليات الصفاء، وأريج الأتقياء ينتشر في مسالك النور المنسابة في سكون المحبة، عروجًا إلى مقام الصديقين.

كل الزهور تقبض أنفاسها ليلًا؛ إلا « مسك الليل » الفائح من شجر اللَّيْلَكِ! فهو وحده يبسط أزهاره الندية عند سكون الليل، فيرسل أريجه الزكي إلى كل مكان..! ويصنع من اللحظة الداجية حفلةً من أنوار الطِّيب، تجول بمواكب المحبين في مملكة اللّه، عبر رحلة لَيْلَكِيَّةِ الجمال، ملائكية الحداء.. فترحل الأرواح لاكتشاف كنوز الرحمن، بسامر الجلال! تلك كأس لا يتاح ارتشافها إلا بدلجتين اثنتين: الفجر والعشاء! و« **إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا..!** »[٢].

هنا المطلع الخامس والأخير من مطالع الكوكب الدري: ميلادُ أفراح الروح في غفلة اللحظة الصاخبة.. فلك الساعة يا صاح أن تنال من أنوار السكون، بعتمة العشاء، أمواجًا من وميض المعرفة باللّه، لها على القلب وقع القرب، بلا صخب ولا جَلب! فاحرص يا صاح على دخولها مع سرب الأجنحة المتوضئة، منتظمًا بجماعتها، صَفًّا في عِقد الدُّرِّ الملائكي؛ تَنَلْ من مشكاة ناشئة الليل مصباحَ القانتين! أوَليس « **من صَلَّى العِشاء في جماعة فكأنَّما قَامَ نصفَ الليلِ!** »[٣] فَفَجِّرْ أيها المحب عيونَ الكوثر

=صحيح الجامع. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن أبي شيبة، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير. وصححه الألباني في المشكاة، وصحيح سنن أبي داود، وصحيح الجامع. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

الليلي، أربعَ رَكَعَاتٍ عَبِقَاتٍ بأريج الجنة! تغرف في الركعتين الأُولَيَيْنِ ما تشاء من رقراق الترتيل جهرًا، حتى تمتلئ حدائقك بربيع القرآن! ثم تسكن في الآخرتين؛ لتتأمل الجمال الخفي في عطاء اللَّه سِرًّا، مناجيًا إياه في خشوع الشاكرين..

ذلك شلال الليل الوضاء، فكيف تنام يا غصن مثقلًا بأدرانك دون تطهر؟ كيف ترقد قبل أن تستدر تجليات النور..!؟

ألا أيها الجناح الراحل بمدار التعبد، تلك مطالع الكوكب الدري الخمسة، تجليات المدد الإلهي بين ساعات الليل والنهار، في مواقيت متوازنة الفواصل، تمد غصنك السالك بأنداء الروح؛ عسى رياحينك تنجو من أدخنة الفحشاء والمنكر، وتبقى محفوظة بأجنحة الملائكة.. فمواقيتُ فَلَكِكَ السَّيَّارِ يَا قَلْبُ قد خُلقَتْ على وِزَانِ المطالع الخمسة! أيُّ شرود عنها مهما قل، يقع به انزلاقٌ عن مدار الروح! فاعتصمي يا طيورُ ببروج الصلاة! ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

❊ ❊ ❊

في منازل ناشئة الليل..

كان الكَرَى قد أكمل طَوَفَانَهُ على جفون الزهور.. والنوم موتٌ عجيب! فكل الغصون الساعةَ قد مالت نحو الثرى خاملة الأوراق.. وإنك لتحتار من أمر هذه الأجساد الصريعة: أين رحلت أرواحها؟ وأين تَرْسُو أنفسُها الآن؟ فقد كان لها في النهار صَخَبٌ ونَصَبٌ، وهَمٌّ واهتمام، وكَرٌّ وفَرٌّ، وحربٌ طاحنةٌ وسباق! ثم... ثم ها هي الساعة تتمدد مستسلمة لخالقها الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالْمُلْكُ للّه الواحد القهار..!

وتغفو عيون السالكين، ولا تنام قلوبهم.. حتى إذا كان جوف الليل، وهَبَّتْ أنسام الخوف والرجاء على الحدائق الغافية؛ اضطربت غصونٌ، وتفتحت زهورٌ.. وباتت أغلب الأخشاب خامدة الأنفاس، تضرب في خريف الشعور..! فإنما شهداء اللحظة اليتيمة من ربيع الليل هم القليل.. أما هذا الوقت يا صاح - رغم عِلْم كثيرٍ من الناس بِخَبَرِهِ - فوقتٌ سِرِّيٌّ، لا يدركه إلا العارفون! ....

هادئًا كالنسيم، لطيفًا كالروح، ينفتح الآن باب السُّرَى الخفي إلى اللّه! فترى معارجَه معشبة بالنوافل الخالصة، والصلوات القانتة.. معارج يلجها المحبون فرادى.. فإنما تلك غصونٌ سُقِيَتْ من غدران الإخلاص؛ فتسابقت إلى محراب الحبيب آحادًا، وأنى لمن أيقن بالرحيل أن ينام؟ وأنى لمن أيقن بالجنة والنار أن يأمن؟ وإنما الخوف طِيبٌ من زهور المخبتين.. الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. حتى إذا غَمَوْا ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ

مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].وللیقین رشفات تنقل العبد إلى منـزلة الشهود؛ فإذا دوحة العمر أغصانٌ تنثر أوراقها تترى، مستجيبة للريح تعطفها بين شروق وغروب.. فتهب في ثلث الليل الآخر، تبكي بين يدي خالقها، وتمد إليه أغصانًا مرتعشة الأوراق! فكل خفقات الكون الساعةَ يشتد وَجِيبُهَا؛ تأهبًا لوداع نفَس جديد مع استقبال فجر جديد! وتمضي الأرض في مدارها.. فما هي إلا لحظات حتى تتبخر أنداء الغصن صُعُدًا نحو السماء!

ويحك يا صاح! أي ركود بليد هذا الذي يشدك إلى خمول التراب؟ وللزهور العارفة دموعُ خوفٍ ورجاء، تستعذب القرآن بدلجة السحر الجميل.. فأدلجي يا غصونُ! إنَّ من أحب رَجَا، وإنَّ من رجا خاف، وإنَّ « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ! أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ** »(١).

ولِناشئةِ الليل قناديلُ أخرى تنبض بنور أخضر، نور يمده زيت الحذر من وعيد اللَّه، وأريج المحبة لجمال اللَّه.. فتبتهج الدوالي حزنًا وفرحًا، وتنشط الخفاف سيرًا إلى اللَّه، قيامًا وسجودًا.. ذلك فصلٌ فريد خارجَ فصول المدار، ومطلعٌ خفي من غير المطالع الخمسة، له إشراق ربيعي، وأريج من كثبان الجنة، يملأ المحراب مسكًا وريحانًا.. فارشف يا سالك..! هذه كأس العارفين باللَّه، تفيض عليك بعلمه! ارشف ولا تَكُ من الجاهلين! ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

مطالعك الخمسة يا عبد، هي ينبوع النور، الممتد في طريقك يوم القيامة.. وإنه لَيُخْشَى عليكَ ألَّا تُتِمَّ رُسُومَها، أو تتخلف عن بعض مواعيدها! فامدد مشكاتها بزيت الليل الصافي؛ تهجدًا! عسى ألَّا يخبو نورك في ظلمات القبر، ولا يحترق

(١) رواه الترمذي وحسنه، ورواه البيهقي في الشعب، والحاكم وصححه، وعبد بن حميد. وصححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح سنن الترمذي، وصحيح الترغيب.

ربيعك بخريف الحساب الرهيب! فزود مصابيحَ القلب بناشئة الليل نافلةً لك! قال المصطفى ﷺ محذرًا ومعلمًا: « **إنَّ أوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ! فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبدي من تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ مِنْهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ. ثُمَّ تكُونُ سَائِرُ أعْمَالِهِ عَلَى هَذَا!** »(١).

وللنَّافلةِ جمالُ الرشفة اللذيذة من كوثر الرحمة، تتنـزل بردًا وسلامًا على حَشَا العطشان! وتُنعش روحَ الصريع بسراب السير اللافح.. فأكرم بها من لحظة! يغرس فيها العبد عودًا أخضر في بستان الأشواق، يورق هدًى ورشدًا في الطريق إلى منابع النور..

وقف الرسول الكريم ﷺ ذات يوم على شفير قبر متفكرًا، فأحبَّ أن يسكب من وهج مواجيده عِبَرًا في قلوب أصحابه الكرام، فقال ﷺ:

- « من صاحب هذا القبر؟ ».

- قالوا: فلان.

- فقال: « **رَكْعتَان خَفيفَتان بِمَا تُحقرون وتنفلونَ، يزيدهما هذا في عملِهِ؛ أحب إليه من بقية دنياكم!** »(٢).

تلك إذن حقيقة الحياة: أرضٌ خصبة وماءٌ فُرَاتٌ.. ولكن أين الزارعون؟ آهٍ يا قلب! حتى متى وأنت معجب بأوراق غصنك الزاهية؟ وعاصفة الخريف على أبواب بستانك تعصف من قريب! ألا رُشَّ خمائلَك الوَسْنَى برذاذ السَّحَرِ اللطيف! فإنَّ « **أَفْضَلَ الصَّلاةِ - بَعْدَ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ - الصَّلاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ!** »(٣).

---

(١) رواه أحمد، والأربعة، وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع، وفي صحيح سننهم. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد، والطبراني في الكبير والأوسط، وأبو نعيم. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

(٣) رواه مسلم.

هذه رياح الشوق تطرد النوم عن عيون المحبين، فيتململون في فرشهم عند ذكر اللحظة البارقة، ثم تنجذب قلوبهم إلى هبوب الروح، فينهضون سراعًا، يستدرون قطر الحياة من ماء الوضوء، ثم ينسلون بهدوء إلى خلوات المحاريب؛ قيامًا بمقام الجوار الأقرب..! عجبًا! كيف تستجيب الأجنحة إلى النداء ولا أذان..؟ وإنما هو صدى الحبيب المصطفى ﷺ مُذْ دعا السالكين إلى شهود تجليات آخر الليل، فلم يزل حديثه ﷺ همسًا رفيقًا، يتردد في أذن الأمة على امتداد الزمان، فتتلقاه الأرواح الصافية، وينقدح نوره في قلوب المخلصين، فإذا هم أيقاظ من بعد هجوع! وإذا الروح تشرق بنور ربها، فيشهد المحبون تدفق الأسرار من كلمات النبي ﷺ، ويذوقون معنى القرب ساعة التجليات؛ فَيُصَدِّقُ الْخُبْرُ الْخَبَرَ من وصيته عليه الصلاة والسلام: « **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِن الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ!** »(١).

- وما سر ذلك يا رسول الله؟

- قال ﷺ: « **يَنْزِلُ اللَّهُ سبحانه إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنا الْمَلِكُ، أَنا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟.. فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ!** »(٢).

وتنتفض الشجيراتُ المشوقة بجمال الله، فتتناثر الأنداء من أفنانها، ثم تدخل في الصلاة.. فإذا بساتينها الخضراء محاريب للتهجد الخفي، وإذا أغصانها الغضة ترسم انحناءات التعبد ركوعًا وسجودًا، انحناءات ذات هالات من نور، تومض في سواد الليل البهيم.. هنا مقام التهجد، هنا توزع العطايا الرحمانية على العباد، شهداءِ الفيض العظيم، فَـتُفْتَحُ لهم معارجُ خاصة؛ للرقي إلى قصور الجنة العليا!

(١) رواه الترمذي، وصححه، ورواه النسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى أيضًا، وابن خزيمة، والحاكم وصححه أيضًا، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، والمشكاة، وصحيح سنن الترمذي.

(٢) متفق عليه.

ذات يوم بهيج رَفَعَ النبيُّ ﷺ أشواقَ الصحابة الكرام إلى كواكب الأفق البعيد، فقال:

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ! لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ!».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ!

قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ!»[(١)].

فأي رفعة هذه وأي عطاء؟ ألا فارحل أيها الجناح البائس إلى جوف الليل الآخِر! واملأ بساتينه تغريدًا وتفريدًا! فهذا مقام الشهود ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فاشهد تجليات الصفاء الكامل يا صاح! وأنشئ براعمَك الخفية بناشئة الليل! ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

إن الملكَ الديان الآن قد فتح حجاب البصائر المشفقة من خطاياها، فمدت أغصانها تجأر إلى مولاها، ترتيلًا وتسبيحًا واستغفارًا، حتى جرت مدامعها في سكون الليل الساجي، فتفتحت أغصانها الرطبة أزهارًا! ما كان لها أن تتبرعم أبدًا في أضواء النهار وغباره! لكنها الآن نثرت بين يدي الرحمن أنداءً صافية القطر، لم يشبها دَخَنٌ ولا نفاق.. فكان الفيض الإلهي أكرم وأجمل. وفضل اللّه بحر أحاط بالزمان والمكان، وللنافلة منه الآن جداول عَزَّ نظيرها، فاركض نحو مولاك يا أيها الطيف الغابر في غيابات العدم! وصَلِّ له تذق معنى الوجود! ثم افتح بابَ السحَر صلاةً بليل؛ تذق حقيقةً جمالَ الخشوع! وتَلَقَّ عن النبي ﷺ دعاءَ التهجد! فقد كَانَ ﷺ إذَا قَامَ من اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:

- «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ،

(١) متفق عليه.

وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ! أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ! »[١].

كانت الملائكة في آخر الليل تحف ببهائها غصن النور المياد سجودًا وركوعًا؛ فتبتهج هالةُ الأنس، وينشط السُّرَى.. فَلِمَ لا تَصْحَبُ الملائكةَ يا صاح إلى باب الرحمن؟ أوَليستْ « صَلاةُ آخر اللَّيْلِ مَشْهُودَة »؟[٢] .. بلى والذي نفسي بيده!.. وإنَّ الملِكَ القدوس ليشرِّفها بتجليه العظيم! فتتلقَّى الأفنان اليقظى وحدها في حدائق الروح جمالا وجلالًا!

فيا أيها العبد المثقل بأدران الخطايا! مُدَّ جناحك إلى شلال السحَر المستدفئ بنور اللَّه! فما أسرع انتثار الذنوب من الأغصان، ساعةَ القيام بين يدي الملك السلام والناس نيام! وافتح باب ليلتك الخضراء وحدك، فإنما النافلة - على عكس الفريضة تمامًا - لا تومض هَالَـتُهَا بهاءً وحُسْنًا، إلا في محراب الخلوة الساكنة، حيث تصفو المدامع من روائح الصلصال، وتزكو النفس بريحان الروح المخلصة لمولاها، إخلاصًا لا تفضحه عيونُ النهار وآذانُه! ذلك أنَّ « صلاة الرجل تطوعًا حيث لا يراه الناس، تَعْدِلُ صلاتَه على أعين الناس خمسًا وعشرين! »[٣].

هنا يخرق الدعاء حجب السماء.. هنا تتنفس النفس الكئيبة، إذ تنفث غيومَ الهموم والأشجان؛ فتضيء البوارقُ آفاقَها الحزينة.. وينهمر الغيث في سكون، ثم.. ثم يمدك الرحمن بلطفه العظيم، حيث « يَنْزِلُ اللَّهُ سبحانه إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟.. فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ! »[٤].

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو يعلى، والديلمي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٣٨٢١).

(٤) متفق عليه.

فيا أيها العبد العليل.. هذا مستشفى الرحمن، يطهر النفوس والأبدان من الأهواء والأدواء، فافتح بوابة الليل الأخيرة واسجد! تنل من بركات اللّه ما لا يعلمه أطباء التراب.. هذه وصية النبوة الطاهرة، لافتة معلقة على باب الليل، تبشر السُّرَاةَ بوصفة الدواء الشافي:

- « **عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛! فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ!** »[1].

أوَليس قيامُ الليل هو طريق المحبين إلى مقام الجوار الأمين، وباب الدخول إلى حصن الولاية الحصين؟ بلى واللّه! ما سار عبد إلى مولاه مخلصًا، عبر مسلك الصلوات، فرائضها ثم نوافلها - وإنما خير نوافلها ما كان بليل - إلا اتخذه اللّه وليًا! وما حديث رسول اللّه ﷺ عنا ببعيد.. فقد كان - عليه الصلاة والسلام - ينقل عن الله كلمات من نور في حديث قدسي كريم، ما أُحب أن لي به حُمْرَ النَّعَم! فيقول ﷺ: « **إِنَّ اللّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عادى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ!** »[2].

وما أمر هذا المسلك بالشاق ولا هو بالطويل.. كلّا! كلّا! وإنما هو ساعات تَعَلُّمٍ وتدريب؛ ثم يصير التهجدُ نَفَسًا طبيعيًّا للعبد المحب، لا يجد راحتَه إلا به! فصلاةُ الليل طَعْمُهَا شَهِيٌّ، وصَرْفُهَا زَكِيٌّ؛ شيء يسير منها فقط، يرفع العبدَ إلى مقامات المنازل العليا، فقليلُها لا يقال له قليلُ! ولكَ في قول رسول اللّه ﷺ

(١) رواه الترمذي، والحاكم، وابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والأوسط. وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبي. بينما حسنه الألباني في الإرواء، والمشكاة، وفي صحيح الترغيب. ثم صححه في صحيح الجامع، رقم:(٤٠٧٩).

(٢) رواه البخاري.

دَلِيلُ نُورٍ على مدارج الوصول. قال ﷺ: « **إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ!** »(١).

وفي مجلس من التقريب والتحبيب، نَصَبَ - عليه الصلاة والسلام - أمامَ السالكين من أمته مَدْرَجًا لطيفًا، ترتفع مقاماته بالتدريج، من منـزلة الذاكرين، إلى منـزلة القانتين، إلى منـزلة الْمُقَنْطِرِينَ، وهو مقامُ الكُمَّلِ من العابدين، وإنما البدء كان ركعتين بعشر آيات فقط. قال ﷺ: « **مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لم يُكْتَبْ من الغافلين! ومن قام بمائة آية كُتِبَ من القانتين! ومن قام بألف آيةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ!** »(٢). فمن ذا يغيب عن وليمة الليل إلا محروم..!

فوَا أسفي عليكَ يا قلبي الكليل! على أي جنب تستطيب الغياب في خريف النوم الطويل؟ وهذا قدوةُ العابدين محمد ﷺ لم يزل يقوم بين يدي ربه متبتلًا حتى تَفَطَّرَتْ قدماه..! كانت عائشة ﵂ تتذكر يومًا مشاهداتها لِطَيْفِ النور المتجلي عن شخص رسول اللَّه ﷺ، وهو قائم يصلي في جنح الظلام، فتقول: « كَانَ النبيُّ ﷺ يَقومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَـتَفطَّرَ قَدَمَاهُ! فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّه؛ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ » قَالَ: « **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟** »(٣).. فَبِأَبِي وأمي أنت يا رسول اللَّه! أَيُّ حُبٍّ هذا الذي سكن قلبَك العظيم؟ وأيُّ وُجْدٍ هذا الذي تَفَطَّرَتْ له قدماك؟ أَلَا صلى اللَّه عليك وعلى آلك يا حبيبي يا رسول اللَّه!

وما كان النبيُّ المعلِّمُ ﷺ يُلْزِمُ أحدًا من أصحابه بقيام الليل، ولكنه ما كان يحب لأحد منهم أن ينام الليل كله بغير صلاة، ولا أن يكون من المحرومين!

---

(١) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، عن أبي هريرة وأبي سعيد معًا، وصححه النووي في رياض الصالحين. كما صححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٣٣٣)، وفي تحقيقه للسنن المذكورة، وفي صحيح الترغيب، والمشكاة.

(٢) رواه أبو داود، والبيهقي في الشعب، وابن حبان، وابن خزيمة، عن عبد الله بن عمرو. وصححه الألباني في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح سنن أبي داود.

(٣) متفق عليه، ومتفق على نحوه عَن المُغِيرَةِ بن شُعبة.

ذُكِرَ عنده يومًا عبدُ اللّه بنُ عمرﷺ، وكان شابًّا أعزب، فقال ﷺ: « **نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ!** ». قَالَ سالم مولى ابن عمر: « فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لا يَنامُ مِنَ اللَّيلِ إِلَّا قَلِيلًا! » (١) ثم ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ [آخَرُ] نَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ؛ فَقَالَ ﷺ : « **ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيطَان في أُذُنَيْهِ!** » (٢).

ألَا فاخشعي يا حناجر الطير السارية تغريدًا بِسَحَر! هذا مَلِكُ الملوك يسمع حداء الفقراء، المنتظمين بقافلة المحبين، فاجعلي من ترتيلك صوتًا هادئًا خاشعًا للّه! فإن غدير النور مقامٌ يسري بين الجهر وبين السر، فيزداد الترتيل جمالًا وجلالًا: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ١١٠].

فيا أيها الفتى المحب! تأدب بأدب النبوة في محراب التهجد! وصل ما استطعت، ركعتين ركعتين؛ فإنَّ « **صَلاةَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى.. فَإِذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ!** »(٣) و« **الْوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ!** »(٤). وقد كان دليل السالكين، الحبيب المصطفى ﷺ يصلي - بمحراب النافلة - « **يُصَلِّي فِيمَا بَيْنَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلاةِ الْعِشَاءِ إِلَى الْفَجْرِ، إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وَيُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ!** »(٥).

وللوتر في ليل العبد وميض الخاتم الدري، يختم به دورة الفلك في كل ليلة، قبل انفلاق الفجر الجديد! وما نام عنه غصن عابد إلا بقيت تجلياته بتراء بغير خاتم! وللنبي الكريم ﷺ حض أكيد للمحبين على جعله آخر كؤوسهم، وما زالت كلماته ترتفع بتعظيم الوتر ندبًا أكيدًا؛ حتى قارب المطالعَ الخمسة وجوبًا! قال ﷺ:

- « **اجعلوا آخِرَ صلاتِكم بالليل وِتْرًا!** »(٦).

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الجماعة.
(٤) رواه مسلم.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه البخاري.

ولِدين اللّه سَعَةٌ ويُسْرٌ، ورِفْقٌ بالغصون الضعيفة، إذ تتحرك الْهُوَيْنَى في طريق اللّه، ترجو رحمته وتخاف عذابه.. بيد أنه ما كان لها أن تغفل عن رشفة الوتر، ولو بعد صلاة العشاء مباشرة، ذلك أنَّ « مَنْ خَافَ أَنْ لا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ! وَمَنْ طَمعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ صَلاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ.. وَذَلِكَ أَفْضَلُ! »(١).

ويبقى جوف الليل الساجي عبر الزمان، سِرًّا لطيفًا من أسرار اللّه، يرشح به وابل الرحمة كل ليلة، فَتُؤْتَى القلوبُ المستجيبة لندائه الخفي أنوارَها ضعفين: جمالًا في الدنيا، وفردوسًا في الآخرة! ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

* * *

---

(٢) رواه مسلم.

مع صفوف الملائكة

ولِصَلاةِ الجماعةِ في الفرائض المكتوبات بهجةُ الاحتفال في أفراح الروح!

ها هو ذا الرسول الكريم ﷺ يرمق هالةَ النور في صفوف المصلين، فينتبه إلى ما قد يعتريها من اضطراب، ثم يستفهم منبهًا:

- « **ألا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها؟** ».

- فقلنا: يا رسول اللَّه! وكيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها؟

- قال: « **يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ في الصَّفِّ!** »(١).

تلك إذن تشكيلة الجمال في خميلة المصلين، دَوَالٍ من نور، تتلاحم أغصانها في احتفال بهيج، خاشعة بين يدي اللَّه! فَلِصَلاَةِ الجماعة في الإسلام - عَبْرَ الصلوات الخمس - كمالُ التوافق، وجمال التناسق، في قوافل السائرين إلى الملك العظيم، فما زالت قناديلها تتوهج بين جوانح المحبين أضعافًا مضاعفة! ذلك أنَّ « **صَلاَةَ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً!** »(٢). وفي ومضةٍ نبوية أخرى: « **صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا!** »(٣). ذلك ميزان المقامات العُلَى، في الفرائض خاصة! ولا أَحَبُّ إلى اللَّه من التقرب إليه بها، وإنما كمال التقرب بها أن تدخل منازلَها في بهجة الاحتفال الجماعي! فَمُدِّي غُصُونَكِ يا أشجار الحدائق الندية! وانسجي بها خمائل المحبة يمينًا وشمالًا؛ لرصِّ صفوف الخشوع بين يدي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الرحمن! فهذه لحظة استقبال القلوب ذات الخفقة الواحدة؛ إذ تنتظم للدخول عند الملِك الكريم صَفًّا، منضبطة بأدب النبوة؛ إشاراتٍ وحركاتٍ، تتابع عليها الإمام، تنظيمًا لخفقات الجوانح وأشواقها! فيا أحباب الرحمن! « **إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا! وَإِذَا قَالَ: « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ »؛ فَقُولُوا: « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ »، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا! وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ! وَأَقِيمُوا الصَّفَّ فِي الصَّلَاةِ! فَإِنَّ إِقَامَةَ الصَّفِّ مِنْ حُسْنِ الصَّلَاةِ!** »[١] وللملائكة موافقةٌ للإمام حمدًا وتأمينًا، فَوَافِقُوهَا! فإنه « **مَنْ وَافَقَ قولُه قولَ الملائكة غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ!** »[٢].

يا لجمال الموافقات بين صفوف الأرض وصفوف السماء! أي تناسق بديع هذا بين أغصان الأشباح وأغصان الأرواح؟ وأي تجاوب هذا بين خفقات الطيور ووميض النور..؟ فانشري أجنحةَ الشوق يا قلوبُ! منتظمةً في عقد النور الدري، صفوفًا بهية الأحوال! فتلك يَدُ النبي الحبيب ﷺ ما تزال تومض ذكراها في ذاكرة الأطياف المحبة، وهو يقيم بها الصفوف، حتى يتم استواؤها.. فتنبجس الذكرى مشكاةً تهدي قوافل السالكين إلى اللّه.. قال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: « كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلاةِ وَيَقُولُ: « **اسْتَوُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ!** »[٣] « وَكَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وَقَدَمَهُ بِقَدَمِهِ! »[٤]، حتى إذا اتحدت الأنفاس هب أريج الرضى من جنة الرضوان..! فتزاحمي يا طيورُ وتنافسي على صدر القافلة! فإن التجليات تفيض أول ما تفيض على الصف الأول! و« **لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ؛ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا!** »[٥].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري.
(٥) متفق عليه.

هذا دينكم أيها المسلمون! دين التوافق والجماعة. وإن الجماعة كمال الدين وجماله.. فها هنا حيث تعلو الأرواح، في سبيكة الخمائل الذاكرة؛ تتمزق أغشية الاختلاف، وتختفي حجب المال والجاه، والفوارق الاجتماعية الكاذبة.. وتنطلق موجة التقوى، تغمر قلوب المصلين، فيرتفع مَنْ خَفَّ جناحُه، ويرسب المثقلون بعلائق التراب..! فيا صاح! هذه الدنيا صقيع يزمجر بين الدروب والأسواق! وهذا صف الصلاة الجامعة: بابٌ كريم مفتوحٌ على دفء القلوب، يلجه المتقون سراعًا! فرادى وزرافات، حتى إذا اكتمل العِقْدُ اشتعلت قناديل الأرواح، وأُغلق الباب دون الشاردين والجاحدين! فلتخفقي يا قلوبُ مُكَبِّرَةً بإحرام طاهر! مُصْطَفَّةً مع جموع التوابين والمتطهرين! فإنه لا نور أدفأ ولا أبهى من وميض الخمائل المنتظمة! قال عبد الله بن مسعود ﵁: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ! فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ! وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ؛ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً! وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ! »(١).

تلك شعيرة لا يجوز أن تتخلف في المجتمع الإسلامي بتاتًا! فهي صمام أمانه، وضمان وئامه، وحزام سلامه. وهي حصنه المنيع، وشعاره العالي الرفيع. بها تتماسك جذوره، وتَقْوَى جذوعه، وتَخْضَرُّ خمائله وأغصانه.. فيا طيرُ أرسل جناحك ضاربًا إلى منازل النور! واشهد الصلاة في موكب السالكين صَفًّا! واحذر أن تتخلف عن شهود الخير؛ فيدهمك الدخان الرهيب فردًا، ويحاصرك الحريق من كل الجهات!

(١) رواه مسلم.

ويشتد غضب النبوة على تارك الجماعة! فينطلق النذير محملًا بعاصفة الشقاء للمتخلفين..! كان الجلال يعلو وجهَ الرسول ﷺ وهو يُحَدِّثُ أصحابَه ذات مجلس رهيب: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ؛ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ!»(١).

فوَا حَرَّ قَلْبَاهُ عليكَ يا صاح! ما لَكَ وللحريق؟.. هذه بشائر التوبة بارقةُ خيرٍ، ترشح فوق صحرائك صَيِّبًا نافعًا، فإذا الصلواتُ المكتوبات بين يديك أعوادٌ خضراء، تورق في قلبك ظلالًا ذات أريج من ريحان الجنة! فتأوي إليها منتظمًا مع أسراب المحبين، ترقب في سَنَى بوارقها ومضةَ الغفران! وكيف لا؟ وهَا إنَّ «مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ، أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ، أَوْ فِي الْمَسْجِدِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ!»(٢). فاللّه أكبر وللّه الحمد!

- وكيف ذلك يا رسول اللّه؟

- «ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ؛ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ! فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ! اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ! وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ!»(٣).

وقد تخرج وأنت تقصد تجليات النور في صلاة الجماعة، لا تقصد شيئًا سواها، لكنك ربما خرجت متأخرًا، أو أبطأ بك سببٌ قاهر في الطريق؛ فتنطلق الأسرابُ محلقة بتكبيرة الإحرام قبل وصولك، وتفوتك بهجة الاحتفال.. حتى إذا وصلت المسجد وجدتَ شعاعات التجلي قد انقطعت بالسلام! وتلسعك

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.

الحسرة على ما فات! ثم تتجه حزين القلب نحو سارية من سواري المسجد، تدق باب الرحمن فردًا، فإذا بمعراج التجلي ينفتح على مصراعيه لك خاصة! ويبرق لك نور الرضى مرحبًا.. يفيض عليك من جمال السابقين لك، بنور الجماعة كاملًا، لا ينقصك من بهائهم شيئًا! حدثني وميض النور المتصل إلى رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا؛ أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلاَّهَا وَحَضَرَهَا، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا!** »(١). اللَّه أكبر..! ألا ما أشد عجبي من عطاء يفيض على السائلين بغير حساب! لولا أنه فضل اللَّه! واللَّه ذو الفضل العظيم، فسبحانه وتعالى من ملك كريم!

- هذه الصومعة السابحة في الفضاء، ترفع الآن إلى المولى أشواقها.. فيفيض عليها من بركات المحبة جمالًا وجلالًا، ثم ترسل أنوارها جداول رقراقة في الآفاق.. وينطلق الأذان! هنا منبع الخير، هنا شلال السلام..! فهلمي أيتها الطيور المحبة إلى ظلال اللَّه! هلمي عساك تحطين آمنة على أحد أبراج الحصون السبعة! فمن بين « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ (...) رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ!** »(٢) فاخفقي يا قلوب تحت القباب والأقواس، وأشعلي من أشواقك مصابيح وَلْهَى، لا تفتأ تنبض بالنور المشرق بجمال اللَّه!..

وتضرب القوافل قاطعة قفار النفس، سيرًا إلى عمران الجلال والجمال، عبر تراتيل خاشعة ذاكرة.. فللطريق عقبات خمس، هي شروط الوصول إلى مقام العمران، فتزود يا قلبي بالصبر! ورتلها واحدةً واحدةً: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة:١٨]. وتلتف مباني المدينة من كل

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والحاكم وقال: « صحيح على شرط مسلم ». وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦١٦٣). وفي صحيح سنني أبي داود والنسائي. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) متفق عليه.

الجهات، تشرئب بأعناقها إلى بيوت اللَّه، ثم تنثر المآذنُ أزهار المحبة! تتنـزل سكينةً وطمأنينةً على القصور والأكواخ، جميعًا على السواء. فإنما المساجد للَّه، وما كان للَّه كان فيؤه لجميع المؤمنين! فإذن لا عجب أن يكون « **المسجدُ بيتَ كُلِّ مؤمنٍ** »[(١)]، ففي فضائه المسكون بأنوار التجليات الملائكية، يجد المؤمن بهجة المواجيد، ودفء الواردات، في انتظار عطاء اللَّه الكريم.. فأي مكان في الأرض يمكن أن يكون ممدودًا ببحار المحبة والسلام؛ إن لم يكن روض المسجد؟.. وكيف لا؟ وها إن « **أَحَبَّ الْبِلادِ إِلَى اللَّه مَسَاجِدُهَا!** »[(٢)] فَلَكُم البشرى يا ناقلي الأقدام إلى الجماعات.. تمشون الهوينى على وقع كلمات الأذان!

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ؟ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الأَوَّلِ!

فلكم البشرى سادتي.. بشرى نبوية تغمر الظلمات نورًا وهاجًا، بشرى ما يزال برقها ينهل من مشكاة اللَّه جمالًا لا يفنى أبدًا.. فيا صاح! هذا داعي الخير قد انطلق نداءً يغمر المعمور بأريج مبارك، فأقْبِلْ ولا تتردد! إن المآذن الساعة قد تفتحت أزاهيرُها عَبَقًا، مسقيًا بأريج الجنة!.. وللأذان صدًى من بشائر النبوة، ما زالت تدعو وتدعو أنْ « **بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »[(٣)]. وتجعل لك بكل خطوة تخطوها تجاه المسجد؛ درجةً ترفعك في منازل الروح.. فإلى عمران القلب بنور اللَّه يا صاح..! إلى بيوت اللَّه؛ استسقاءً لرحمة اللَّه، واستدرارًا لفضله العظيم! فادخل في صفوف الفقراء وكبر مع الإمام للصلاة؛ تكن من أهل اللَّه!

ألا وإن الرضى مقامٌ يمد القلب بزيت الطمأنينة؛ فتضيء مواجيده فرحًا باللَّه. فيا أيها العبد الْمِلْحَاحُ! أرسل الجناح! وتَعَبَّدْ لربك بالغدو والرواح؛ سيرًا مع

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٦٨٠٢).

(٢) رواه مسلم.

(٣) تقدم تخريجه.

المصلين إلى قباب الجنة! فلك منها ما تشاء، حدائقَ وأنهارًا، تمتد ما بين منازل الصديقين والصالحين، وإنما هي عراجينُ غُرِسَتْ في الدنيا بنقل الخطوات إلى بساتين الجماعات! فإذا نَقْلُ الأقدام بين الغدوات والروحات أصداءٌ يوقعها نبضُ القلب الْمَشُوقِ بِنُزُلِ الجنة! وإذا بالمحبوب يحقق وعده، ويكرم عبده! ذلك أن « مَنْ غدَا إلى المسجد أو راح؛ أعد اللَّه له في الجنة نُزُلًا، كلما غدَا أو راح! »[1]. وأيما « **رَجُلٍ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ؛ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ!** »[2]. وإنه لسياج النور يحيطك من كل الجهات، حفظًا من كل العوارض الظاهرة والخفية.. وما كان لجار اللَّه إلا أن يكون عزيزًا.

فيا أيها العبد الشارد في متاهات الدخان! أي عذر - بعد هذا - يمنعك من شهود تجليات الأذان؟ ويحصرك أن تحضر مع الطير المصطفة بباب الرحمن..؟ ألا ما أوهى أعذار القلوب الغافلة! وما أكسل الأجنحة المثقلة بنسيج العنكبوت! فَرِحَالَكَ يا سَالِكُ رِحَالَكَ! سيرًا إلى مولاك عند كل نداء؛ تَجِدْ مكانك محفوظًا بين قافلة المحبين، الغارفين من كوثر اللَّه، صفوفًا خاشعةً بين يديه تعالى.. فكيف بك إذا وليتَ مدبرًا عند النداء؟ كيف والفضاء يمتلئ بأصداء الأذان العظيم؟ بأي ركن تفتح قوس الصلاة بَعْدُ، أم بأي فلاة؟ كيف وها الخير كله إنما يتدفق رقراقًا على الأغصان المصطفة خلف الإمام؟.. وأمَّا « **مَن سَمِعَ النداءَ فلَمْ يأْته؛ فلا صلاةَ لهَ إلَّا من عذرٍ!** »[3] كذا يا رسول اللَّه؟.. لا حول ولا قوة إلا باللَّه!

فارحلي يا قلوبُ وبَكِّري..! وتقاطري زُمَرًا وفرادى، إلى مورد الملك الكريم!

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبان، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم:(٣٠٥٣)، وفي صحيح الترغيب، والمشكاة، وصحيح سنن أبي داود.

(٣) رواه ابن ماجه، والطبراني في الكبير، والدارقطني، والبيهقي في معرفة السنن، وابن حبان، والحاكم، وقال: « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٦٣٠٠)، وفي الإرواء، وصحيح سنن ابن ماجه.

فهذا الأذان الجميل قد أيقظ الجوانح الحية بحب اللّه في كل مكان، وتحركت القناديل سارية بين الدروب، مجذوبة إلى وهج المآذن المسكونة بحب اللّه.. وتمتد الخطوات نورًا مؤنسًا إلى كل قادم نحو بيت الله.. فإذا المشي إلى اللّه جمال عجيب، يمد القلوب ببركات خاصة، تُطلب لذَاتهَا علاوةً على غايتها، في طريق السعي إلى فضاءات المساجد! إذ « **الْأَبْعَدُ فَالْأَبْعَدُ مِن الْمَسْجِدِ أَعْظَمُ أَجْرًا!** »(١).

ولذلك لم يزل جابر بن عبد اللّه الأنصاري - رضي اللّه عنهما - يحدث بقصة البعيدين السابقين! قال ﷺ: خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ؛ فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ:

« **إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟** »

قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّه! قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ..

فَقَالَ ﷺ: « **يَا بَنِي سَلِمَةَ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ..! دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ!** »

فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا! »(٢).

هنا بيت اللّه: عبير الربيع يتردد بين الأرض والسماء، وأريج المسك يروح ويغدو، بين أجنحة الملائكة وأجنحة المصلين، فلفضاء الجامع أنفاسٌ تعبق بروائح الطيب البهيج. فيا أيتها الأغصان تخلصي من أوراقك النتنة! وتطهري قبل نقل الأقدام إلى المساجد..! فما كان لقاصد بيوت اللّه أن يتلبس بريح كَرِيهَةٍ! عجبًا! وأي عود هذا الذي احترقت أفنانه بأدخنة الخبائث، يمكن أن تحفه ملائكة الرحمن وهو في مصلاه؟ ألا وإن المسجد باب من أبواب الجنة، فما كان على من دقه إلا أن يتجرد من أدخنة الجحيم، وروائح الصلصال المسنون!

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي في الكبرى. وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢٧٥٩)، وفي صحيح سنني أبي داود وابن ماجه، وصحيح الترغيب. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) رواه مسلم.

فتأدبي يا نفوس بأدب القلوب الطاهرة! واغمري الجوانح زكاة من حوض النبوة! واسكبي على القلب ما استطعتِ من أقداح الهدى؛ استسقاءً من كلمات الرسول ﷺ.. قال - عليه الصلاة والسلام - يوصي المؤمنين بمراعاة الجوار الملائكي: « **مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ!** »(١). عجبًا! فكيف بمن شرب دخان السجائر يا رسول اللَّه؟.. تلك ومضة من بارقة التنبيه بالأدنى على الأعلى.. فتجردي يا قلوب من كل روائح العلق المسنون! وتطهري من جميع أنواع الخبائث عند كل مسجد! فإنما المساجد مكان يحتفل فيه أهل الأرض وأهل السماء بمناجاة ملك الأرض والسماء!

فبأي الورود ستفتح يا غصنُ فصلَ الاحتفال؛ وأنت لم تزل مضمخًا بنتونة الحريق؟ كيف؟ وهذا مولاك يدعوك أن تأتي في كامل ربيعك الزاهي.. كيف؟ وها كل الأغصان حواليك تتفتح براعمُها الساعةَ لدى البوابة الخضراء؛ ووريقاتها لم تزل ترشح بندى الأمر الإلهي الجميل: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: ٣١].

يا صاح تطهر ثم أقبل! حتى إذا وقفت على باب اللَّه ارفع قدمك اليمنى، ثم ادخل..! تَجِدْ ريح المسك النبوي بقلبك، ويتحرك غصنك شوقًا إلى روضه الجميل عليه الصلاة والسلام؛ فتبدؤه بالسلام، وتدعو:

- اللهم صل وسلم على سيدنا محمد! اللهم افتح لي أبواب رحمتك!

فتدخل المسجد بسلام طيب، ودعاء كريم؛ تقرؤه امتثالًا لأمره المطاع ﷺ أنْ: « **إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ** ﷺ **ثُمَّ لِيَقُلْ: « اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ!** ». **فَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ!** »(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود واللفظ له، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، والبيهقي، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم:(٥١٥)، وفي صحيح السنن الثلاثة.

وتدخل بيت الرحمن عبدًا، فتغمرك الرحمة، راحة كاملة تنساب من قلبك إلى جميع جسمك، تستغرق كل أفنانك وأزهارك.. فإذا الأنفاس تتسابق حاملة نبضات الشكر للّه؛ صُعُدًا إلى الأعتاب العليا.. فلا تملك إلا أن تصلي ركعتين قبل أن تجلس؛ تحيةً طيبةً مرفوعة إلى الملك الودود. ذلك أدب العبد الداخل عتبةَ بيت اللّه. قال معلم السالكين:

-« **إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُم الْمَسْجِدَ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!** »(١). حتى إذا فرغت من تحية مولاك؛ جلست ترشف من مائدته كؤوسَ السكينة والأمان، ذاكرًا ومستغفرًا، في انتظار حضور موكب الصلاة الجامعة.. وتتطف من لذة الانتظار أسرارًا عجيبةً، تعمر قلبك بتلقي الدر المنثور في مملكة اللّه، فيزداد الشوق توهجًا بين ضلوعك، إلى استدرار لطائف الصلاة.. « **وَلا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ!** »(٢).

ذلك فيض من تجليات الصلاة الجامعة، المتوهجة أنوارها بمساجد اللّه.. كلما وَرَدَتْهَا قوافلُ السائرين إلى اللّه، واصطفت خاشعة تستضيء بمشكاة اللّه، وتتطهر بكوثر وَارِدَاتِهَا وقَطْرِ بركاتها..! بينما ظلت حوافر العواصف الشديدة تركض من وراء أسوار الجامع، فِتَنًا قاسية الصقيع..! فيا أيها الجناح الشارد خارج حصون المساجد! بأي شمعة ستدخل مواجيد الفريضة فردًا؟ كيف؟ والريح شديدٌ شديدٌ..!

ألا يا طيور المحبة أوقدي قناديل الصلوات المكتوبات، جماعات جماعات! وارحلي إلى مساجدها زُمَرًا! عسى أن تنالي من منازل السير مقام المتقين، الذين سيقُوا ﴿ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

بهجة الجمعة

كان الفَلَكُ قد استكمل دورةَ أسبوع، من مطالع الكوكب الدري.. فاندفع نورُه الفضي موجًا، يترقرق فرحًا، حتى أشرف على فجر الجمعة! ألا وإنَّ سيد الأيام يوم الجمعة! وإن شئت يقينًا يا صاح، فهذا رسول الله ﷺ يحدث فأنصت! قال عليه الصلاة والسلام:

- « **خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ! فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِن الْجَنَّةِ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إلا وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ؛ شَفَقًا مِن السَّاعَةِ! إلا الجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا؛ إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ!** »[1]. فهو يوم يجمع بين بهجة الجمال وهيبة الجلال!.. فلمقامه بالقلب أحوال وأذواق، تجمع بين الخوف والرجاء، وكلاهما ضروري للعبد السالك إلى الله.

فيا أيها الطائر المحب، هذا فجر العيد، فأرسل أغرودة الاحتفال..! كل الأنفاس الآن في الكون، تتهيأ لافتتاح اليوم العظيم.

كانت ريح من عالم الغيب تهب على عالم الشهادة، فيخفق القلب وَجِلًا؛

---

(١) رواه مالك، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٣٣٣٤)، وفي صحيح سنن الثلاثة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

استشعارًا ليوم الحساب..! فإذا الأغصان تتجرد من كبريائها، وتمضي خاشعة الأبصار، تنقل الأقدام في سكون ووقار؛ سيرًا إلى المسجد الجامع.. وهنا تتشكل ظلالٌ من مشاهد الحشر المهيب، صُوَرًا تَتَرَاءَى في تقاطر المصلين من كل حدب وصوب، وفي اجتماعهم خُشَّعًا صامتين، يُصْغُونَ بكل الجوارح إلى الذكرى، متدثرين بجلابيبَ وأقمصةٍ من بياض؛ تعبيرًا عن البساطة والصفاء، وإمعانًا في التجرد الكامل من جميع ألوان الحياة الكاذبة! مستجيبين لإرشاد النبي ﷺ: « اِلْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ! »[1]. وفي ومضة أخرى من هَدْيِهِ عليه الصلاة والسلام: « فإنَّها أطهرُ وأطيبُ! »[2].

ويسري في نفوس المؤمنين إحساس بعظمة هذا اليوم المحمل بعدد من الذكريات الكونية الجليلة!

أنت الساعة جالس بين يدي اللَّه، أفقر ما تكون، وأضعف ما تكون! تجثو وسط الناس الذين جاؤوا يجأرون إلى اللَّه؛ جزعًا من ثقل الخطايا، ومن أدخنة الذنوب الضاربة بسوادها بين الجوانح.. هذه مواجيد الحساب قد مادت بغصنك يا صاح، وما بينك وبين هوله إلا أن تغمض عينيك وتفتحهما..! فانشر صحائف الأسبوع جميعًا، وافحص أوراقها صفحة صفحة! وكلمة كلمة..! ثم انظر: أفيها ما يستحق أن تعرضه على مولاك؟ ويبهتك الهول يا قلبي العليل فتبكي.. ثم تفزع إلى وارد الاستغفار!

آهٍ أيها العمر المتناثر وَرَقَاتِ خَرِيفٍ تترى!.. هذا جمال العيد احتفالٌ بساعة الغفران العظيم.. فما تذكرك لما فات؟ وما تفكرك فيما هو آت؟ ذلك أدب الدخول على الرحمن من يوم الجمعة، فاغرف من ماء الطهور معاني

---

(١) رواه أحمد، والأربعة إلا النسائي. وقال الترمذي: « حسن صحيح ». ورواه ابن حبان، والحاكم، كلهم عن ابن عباس. وقال « صحيح على شرط الشيخين ». وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (١٢٣٦)، وفي صحيح سنن الثلاثة، والسلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٢) رواه النسائي عن سمرة، وصححه الألباني في صحيح سننه، وفي صحيح الجامع رقم: (١٢٣٥).

الصفاء، أنوارًا فياضة من تجليات الروح، وتَطَهَّرْ..! استجابةً لأمر نبوي أكيد: أنْ « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُم الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ! »(١) ثم تَعَرَّضْ لكرامات الجمعة! ذلك أن شَلال الغفران من يوم الجمعة تنطلق جداوله الرقراقة من فلق الصبح إلى آخر النهار! وإنما يشتد تدفقه البلوري لحظةَ الصلاة الجامعة.. فانشر أجنحتك يا صاح لصبيب النور؛ تَصْفُ أغصانُك المتعبة بأدخنة الأسبوع، فإذا هي ربيعية الإشراق، طيبة الأنداء والأنفاس!

فتطهري يا قلوبَ الطيرِ تَطَهَّري! فإنما الطهر بالتطهر، وأَدْخِلِي جوارحَك الخارجية في الماء الطهور؛ تَـتَطَهَّرْ جوارحُك الباطنيةُ من دَرَنِ الأحزان، وتتفتح من بين خمائلها أزهارُ الروح! ذلك وعد النبي ﷺ لقوافل البررة الأطهار.. فإنه: « مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَتَطَهَّرَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، ثُمَّ ادَّهَنَ، أَوْ مَسَّ مِنْ طِيبٍ، ثُمَّ رَاحَ فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَلَّى مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الإِمَامُ أَنْصَتَ؛ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى! »(٢). فإذا أزاهيرك الذاوية تنتعش براعمها من جديد، وتنشر وريقاتِها الغَضَّةَ فرحًا، فتتطهر الأفنان بأندائها، متخلصة من ريح العلق المسنون.. فلا تفوح بعد ذلك إلا مسكًا وعنبرًا..!

ويبتهج ربيع الروح في يوم الجمعة، محتفلًا بساعة الأسرار، ساعة الكنـز الكريم! فَمُدَّ جناحك يا صاح متعرضًا لشلال النور المتدفق مِنْ عَل، متحريًا لحظة الانبجاس العظيم! حيث يبشر البارق بالرضى والقبول، وبالخير الدافق ما بين فصول الدنيا وفصول الآخرة.. فاشهد يا صاح جميع أوقاتك من يوم الجمعة! واشهد منها كل صلواتك! حاضر القلب، شهيد الوجدان! عساك تصادف ساعة التجلي الكريم؛ فتكون من الفائزين..! قال معلم الأمة ﷺ: « إِنَّ في الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ! »(٣). قال راوي النور: « وأشار ﷺ بيده: يقللها! ».

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الجماعة.

ألا أيتها الغصون الراكنة إلى الطين أفيقي! فقد أذِنَ للربيع أن ينطلق أذانُه مبشرًا بأنسام السلام، نديةً تغمر الفضاء، وترشح جمالًا في كل مكان!.. فقد صدر الأمر الإلهي العظيم، فريضة ربانية كبرى، تشرع جلال الاحتفال! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

فَالبِدَارَ البِدَار! يا أيتها النفس الشاردة في الفيافي والقفار، تسرحين بين أسواق المزابل والدخان! ويحك لا تُعْرِضِي عن نداء الملك العظيم! فَتُحْرَمي فيضَ نوره الصافي، وأريجَ منِّه الكريم؛ وإذن تقع الأجنحة المتعبة أسيرة العناكب، تضرب عليها غشاوة من غبار الغفلة، وتختم على القلب بأدران التراب..! تلك لطائف العلم الزكي، تفيض من فم النبي ﷺ، يا قلوبُ فأنصتي!

- « **لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ؛ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ! ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ!** »[١]. فبكري يا حناجرَ الطير بالتغريد؛ تفوزي بفضل البُكُورِ! وإن خير البُكُورِ بكورُ يوم الجمعة، فلتبادر يا جناح بالرواح إلى ظلال اللَّه! تنل خير مكان بين يديه تعالى، تسجيلًا موثَّقا إلى يوم القيامة! ذلك أنه « **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوا الصُّحُفَ وَاسْتَمَعُوا الْخُطْبَةَ!** »[٢]. فللملائكةِ مَقامُها بمجالس الإنصات!

- وما سر السبق في ذلك يا رسول اللَّه؟

- سِرُّهُ أنَّ « **مَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا**

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنني النسائي وابن ماجه.

قَرَّبَ بَيْضَةً. فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ! »[١] فاجعل لك من بين الملائكة مجلسًا حسنًا يا أيها العبد المحب! وبَكِّرْ إلى المسجد تبكيرًا! عسى ألا تكون من المتأخرين! فيا أيها السالكون إلى اللَّه! سابقوا إلى المقامات العُلَى من بستان الملك الديان! و« **احْضُرُوا الذِّكْرَ وَادْنُوا مِنَ الإِمَامِ! فَإِنَّ الرَّجُلَ لا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا!** »[٢].

- وكيف ذلك يا رسول اللَّه؟

- ذلك أن « **فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ! فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ!** »[٣]

عجبًا!.. فأي شيطان هذا الذي يصرفك يا غافل عن نداء الجمعة العظيم؟ وأي هوى يعصف بك في متاهات الظلام؟ فتتردى بحميء الشهوات، وتنسى يومك العظيم، وتجرفك بهارج اليهود والنصارى الكاذبة؛ فتتخذ أعيادَكَ أَسْبُتًا وآحَادًا! كيف؟ وها إنَّ « **مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ!** »[٤]. ولقد كذبوا - واللَّه - في تعيينهم لموعد الغفران؛ فضلوا وأضلوا! فإنما « **نحن الآخِرُونَ السابقونَ يومَ القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتابَ من قبلنا. ثم هذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم،** (يعني: الجمعة) **فاختلفوا فيه! فهدانا الله له؛ فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليهودُ غدًا، والنصارى بعدَ غَدٍ!** »[٥]. ذلك قول الحق المبين، من حديث خاتم المرسلين ﷺ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]!.

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في الكبرى، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٢٠٠). وفي المشكاة. بينما حسنه في السلسلة الصحيحة، وصحيح سنن أبي داود. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، وابن أبي شيبة، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦١٤٩)، وفي الإرواء، وصحيح سنن أبي داود.

(٥) متفق عليه.

فيا أيها السالك إلى اللّه عبر مقامات الركوع والسجود! هذا مقام الاحتفال، فانشر مواجيدَك حدائقَ وأزهارًا! وأرسل جناحك شعاعًا يسبح في مملكة اللّه!.. فباب التجلي قد تفتقت خُضرته عن أنهار الجنة، فتدفقت على صفوف المصلين مسكًا وريحانًا! فأي أحمق هذا الذي تشغله أسواق الحرائق والدخان عن سوق الكمال والجمال؟ أوَلم تسمع بسوق الجنة يا صاح؟ عجبًا!.. ألا وإنها لسوق حقًّا وصدقًا! فاصغ إذن!

كان الحبيب محمد ﷺ في مجلسه البهي، يرش وجوه أصحابه الكرام ببشارة الجمال، ويقول: « **إنَّ في الْجَنَّة لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَة، فَتَهُبُّ ريحُ الشَّمَال فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ؛ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا! فَيَرْجعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا؛ فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّه لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حسنًا وَجَمَالًا! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّه لَقَد ازْددتُم بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا!** »[1]. فارسم بريشتك الولهى ما تشاء من طموحات الجمال! فستبقى ألوان اللوحة النبوية آيةَ الإعجاز الجمالي الأولى...! تشع بأنوار التحدي إلى يوم القيامة!

ألا فاقترب..! اقترب أيها الجناح الشارد! وذق من كؤوس الاستقبال عند بوابة الجمعة، ذق ما يتمتع به ضيوف الرحمن من نعيم! وتأدب عند ربك الملك العظيم! فإن لخشوع الجمعة سُكُونَ الْمُخْبِتِينَ، لا لغو ولا إيذاء.. واحذر نزغات إبليس! فما كل من صلى الجمعة قد صلاها حقًّا! وإنَّ « **مَنْ لَغَا وتخطَّى رقَابَ الناسِ كانتْ لَهُ ظُهْرًا!** »[2] وشتان بين فريضة الظهر وفريضة الجمعة! فهذه صلاة الاحتفال بتجليات الرحمة والغفران، من يومِ سيد الأيام!

كان الإمام يخطب، وكانت الملائكة ترسل النور بأجنحتها على المصلين.. وللخطيب مواجيد تفيض ورعًا، فتصيب الناس بلافح الشوق إلى رحمة اللّه

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى، وابن خزيمة. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦٠٦٧)، بينما حسنه في صحيح الترغيب، وصحيح أبي داود.

ورضوانه، وتتعلق الأنظار والقلوب بالكلمات، وهي تنبعث من أشجان الإمام أحوالًا تتهادى بين خوف ورجاء.. ذلك أن الإمام يشهد على نفسه وعلى الناس قائمًا، فالرسول ﷺ إنما « كانَ يَخْطُبُ قائمًا، ويجلسُ بينَ الْخُطْبَتَيْنِ، ويقرأ آيات، ويُذَكِّرُ الناسَ! »[1]. يُشْهِدُ اللَّهَ على خلقه؛ أن قد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في اللّه حق جهاده حتى آتاه اليقين!

تلك مظاهر الاحتفال البهيج في أجمل صورة من صور الاجتماع على ذكر الله وإقام الصلاة.. هالة نور ملائكية مشرقة من بحر الغيب العجيب، ترتفع فوق رؤوس المصلين طبقاتٍ بعضها فوق بعض، حتى تتصل الأرض عبرها بالسماء! قال النبي ﷺ يصف ذلك: « إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، فضْلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ! فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا! فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ:

- أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟
- فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، وَيَذْكُرُونَكَ..
- فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟
- فَيَقُولُونَ: لا.
- فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟
- فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيدًا، وَتَمْجِيدًا، وَذِكْرًا!
- فَيَقُولُ: فَأَيَّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟
- فَيَقُولُونَ: يَطْلُبُونَ الْجَنَّةَ.
- فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟

---

(١) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير، والدارمي، وابن حبان، وابن خزيمة. وصححه الألباني في صحيح الجامع. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

- فَيَقُولُونَ: لا.
- فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟
- فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا!
- فَيَقُولُ: وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟
- فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ!
- فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟
- فَيَقُولُونَ: لا.
- فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟
- فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا هَرَبًا، وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفًا!
- فَيَقُولُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ!
- فَيَقُولُونَ: فَإِنَّ فِيهِمْ فُلاَنًا الْخَطَّاءَ، لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ!
- فَيَقُولُ: هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ!»(١).

ذاك بحر اللّٰه الفياض! مطلق الامتداد عن الزمان والمكان! يطهر كلَّ من جاوره، إن لم يصبه بموجه أصابه بنداه!

ألا فارحل من ميناء ذاتك المظلم يا قلبي.. وغادر طين الصلصال! وانشر أشواقك أشرعة في بحر السلام! حتى تنفرج لياليك عن فجر الجمعة الفياض بالبركات. هنالك تجدد سفائنك وأشرعتك بذكر اللّٰه وإقام الصلاة.. فيا أيتها الأشواق السائرة إلى الرحمن! لا مَنْفَذَ يومَ الجمعة إلى مقام الرضى إلا من معراج الصلاة..! فاسعي إلى ذكر اللّٰه وإقام الصلاة.. وذري ألوان الطيف الكاذبة، وأغلال العمل الواهم! ومن يدري؟ فربما لا يدور بك الفلك إلى

---

(١) متفق عليه، ورواه أحمد أيضًا واللفظ له.

جمعة أخرى..! وأي ندم بعدها يعرج بأحزانك إلى منابع الغفران؟.. آهٍ يا قلب! ومن للجناح المثقل بغبار السِّفَارِ إذا لم يتداركه وابل العزيز الغفار؟

هذا يوم الغيث الطهور، فمدي أوراقك يا غصون إلى بارقة المحبة! واستدري من وميض الرضى عِتْقًا من النار..! هنا كمال التجلي على الخُشَّعِ الرُّكَّعِ، فيا أيها الغصن السَّارِبُ في أدخنة الدروب..! استجب لرياح الإيمان! والتحق بشلال الرحمة الثجاج!.. لا تَفُتْكَ بهجة الاحتفال العظيم بين يدي الملك الكريم!

❊ ❊ ❊

مع الأنبياء والصديقين...!

تلكَ قَافِلَتُهُمْ ما تزال سَائِرَةً يا صاح..! وهذه آثار الْخِفَافِ ما تزال مرسومة على الرمال!.. وَالعِيرُ ما زالَت تَرْغُو هناك غير بعيد..! وأَذَانُهُمْ لم تزل أصداؤه تدق أبواب القلوب في كل مكان..!

فَلِحَاقًا بالأحبة يا صاحِ لحاقًا! فلو فَاتَكَ رَكْبُهُمْ إذن لفاتك الخيرُ كلُّه! ولفاتتك فرصتك الوحيدة للنجاة! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وإنَّكَ إنْ تَلْحَقْ بهم تكُنْ ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

أما سبيل اللحاق بهم فإنما تنفتح أبوابُه على محراب التعبد؛ إخلاصًا للّه وتوحيدًا.. فإذا طلبتَ لهم علامةً؛ فَآيَـةُ رَكْبِهِمْ تكبيراتُ الصلاة، وهيئة جمعهم صُفُوفُ الصلاة، يَخْطُونَ إلى مولاهم عبر مواقيت الصلاة، وإذا أدْلَجُوا أوْقَدُوا قناديلَ الصلاة..

لكنَّ أوَّلَ شروط الطريق يا صاح تَطَهُّرٌ من المنكرات، وتَخَلٍّ عن الثياب النَّجِسَاتِ. فالرحيل إلى لقاء الأحبة لا تستبين سَبِيلُهُ إلا لذي قلب عفيف وجسم نظيف.. فإذا انطلقتَ فانظر..! هناك واديهم يمتد ما بين فعل الخيرات وإقام الصلاة. حتى إذا أشْرَفْتَ على منازلهم فتوضأ، ثم ادخل! فكل الخيام محاريب، وكل الأبواب مساجد..! ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]!.

ففي الوادي أبُو الأنبياء إبراهيم عليه السلام هنالك ذبح نفسه للّه عدة مرات، وتقلب في صنوف الابتلاءات، فأخلص المحبة للّه، وأتم الكلمات! وما كانت حركته

ولا هجرته إلا تمهيدًا للأرض وتعميرًا لها؛ من أجل إقام الصلاة! ذلك تعبيره الصريح المتذلل بين يدي مولاه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وتلك دعوته الخالصة، رفعها إلى اللَّه متضرعًا: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. ولقد تقبل اللَّه منه الدعاء؛ فأنبتَ له ابنَه إسماعيل عابدًا للَّه قانتًا، وآتاه اللهُ النبوءَة، وكان من المصلحين؛ ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٥]. وكذلك كان أخوه إسحاق، عليهما السلام.

ويكلم اللَّه ﷻ موسى عليه السلام بالواد المقدس طوى، في موقف رباني رهيب، تقشعر منه الأبدان! فمن ذا قدير على تلقي كلام الرحمن، ولا تحترق ذراته في وهج النور؟.. كان البرق يقصم حُجُبَ الظلام بقوة، ويكلم اللَّه موسى تكليمًا: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢، ١٣] فيكون أوَّلُ الوحي أمرًا بإخلاص التوحيد والعبادة للَّه، ويكون التعبير عن ذلك كله أمرًا بإقام الصلاة؛ ذِكْرًا اللَّه، وتوحيدًا له وتفريدًا: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

وكان داود عليه السلام يَؤُمُّ جماعةَ الطير والجبال بذكر ربه وتسبيحه، في العشي والإبكار.. حتى إذا كان الليل، وآوت الطيور إلى أوكارها، وسكنت الجبال أوقد هو عليه السلام قناديل الصلاة، وانخرط في أوراد المحبة فردًا..! فالسالك المحب ما كان ليترك صلاةَ الليل أبدًا.. قال نبينا محمد ﷺ في حق داود عليه السلام: « **أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ** »(١).

أمَّا النبيُّ السائحُ، رُوحُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ، الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، فقد كان مُتَيَّمًا بمواجيد الصلاة، لم يزل يمسح الأرضَ عَابدًا رَبَّـهُ بالصلوات، ينشر كلمة التوحيد ويزرع البركات، حتى رفعه اللَّه إليه.. ومُذْ نطق في المهدِ صَبيًّا نطق

(١) متفق عليه.

بحب الصلاة والزكاة؛ وَصِيَّةً من اللَّه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

ثم ختم اللَّه - جل ثناؤه - سلسلة الأنبياء والمرسلين بنبينا محمد ﷺ، فكان فارسَ المحراب بلا نزاع! وكان إمامَ الرسل والأنبياء.. وَشَّحَهُ اللَّهُ بوسام الصلاة - لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ - من فوق سبع سماوات! تكريمًا له ولأمته، بأعدادٍ ومواقيتَ خاصة؛ علامةً له وللمؤمنين إلى يوم الدين، فقال له ﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]. وقال له أيضًا: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

ولقد اصطبر محمد ﷺ علَى الصلاةِ أَيَّمَا اصْطِبَارٍ! فلم يزل يقوم بين يدي ربه تعالى حتى تَفَطَّرَتْ قدماه! قالت عائشة رضي الله عنها: « كَانَ النبيُّ ﷺ يَقومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفطَّرَ قَدَمَاهُ! فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّه؛ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: « **أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟** »[1]. فما أنْ ناداه رَبُّهُ بكلماتِ المحبة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٤]. حتى انخرط ﷺ في عِقْدِ الدُّرِّ مع المحبين، وتقدَّم بِسِرَاجِهِ الوَهَّاجِ أمامَ السُّرَاةِ الْمُدْلِجِينَ.. فلم يزل يُلَمِّعَ محرابَه ببروق الترتيل، وأشواق القناديل؛ حتى صار واسطةَ عِقْدِ المصلين، وجوهرةَ الصلاة الكبرى! ولم يزل ﷺ يقول لأصحابه الميامين، متلذذًا برشفاتها: « **وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ!** »[2] فكان لا يملك إذا صلى النافلةَ متهجدًا، إلا أن يسافر في مَسْرَى الصلاة ليلًا طويلًا، حتى تتفطر قدماه، فلا يشعر بشيء من آلامها بما يجده من لذة الصلاة!

---

(١) متفق عليه. ومتفق على نحوه عَن المُغِيرَةِ بن شُعبة.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، والحاكم، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط والصغير، وأبو يعلى في مسنده. وصححه الألباني في صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة، وصحيح سنن النسائي.

فَبِأَبِي وأمِّي أنت يا سيد المحبين يا رسول اللَّه!.. عليك من اللَّه الصلاة وعليك السلام!

وكل الناس يَنْسَى.. لكن الصحابي الجليل عبد اللَّه بن عمر – رضي اللَّه عنهما – لم ينسَ ليلةَ صَلَّى مع النبي ﷺ في بيته متهجدًا، وهو آنئذ شابٌ حَدَثٌ، صغيرُ الجناح، فلم يقدر على التحليق في آفاق النبي عليه الصلاة والسلام، وعَيِيَ حتى كاد أن يخرج من الصلاة! قال رضي الله عنه: « صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ! قيل: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ! »(١). ذلك أنه ﷺ من فَرْطِ حبه لمولاه؛ كان طويلَ القُنُوتِ في تَهَجُّدِهِ؛ إذا افتتح القرآنَ مُرَتِّلًا لم يزل سائحًا في ملكوت اللَّه إلى أن يشاء اللَّه! فقد سُئِلَ ﷺ أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: « **طُولُ الْقُنُوتِ!** »(٢). والمقصود بطول القنوت بهذا السياق: طول السكون والإخبات. ويكون ذلك بطول القيام؛ لكثرة ما يقرأ في صلاته من القرآن، ثم طول الركوع وطول السجود؛ لكثرة استغراقه في التسبيح والدعاء والاستغفار(٣).

فعن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: « صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى.. فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى.. فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا.. إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ.. ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: « **سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ** »، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ! ثُمَّ

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) ملحوظة: لا بد من التذكير هاهنا بأن الإطالة في الصلاة، إنما هو أمر خاص بالنوافل، لمن صلى منفردًا، وخاصة صلاة الليل. أما من يؤم الناس في الفرائض فواجبه التخفيف. وقد قال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما أَمَّ قومَه فأطال بهم: « يَا مُعَاذُ! أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ – ثَلَاثَ مِرَارٍ – فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِـ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٤]؛ فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ، وَالضَّعِيفُ، وَذُو الْحَاجَةِ! » متفق عليه.

قَالَ: « سَمعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ »، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ! ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى »، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ! »(١).

وربما قَنَتَ الليلَ كلَّه بآية واحدة، يقرؤها بعد الفاتحة، ثم يرددها وحدها لا يزيد عليها حتى يصبح! فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ؛ تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا قَالَ: « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عز وجل الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا! وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ عز وجل شَيْئًا! »(٢).

ذاك محمدٌ رسولُ اللَّه ﷺ.. إمامُ الأنبياء، وأميرُ الأتقياء، وطَلِيعَةُ قافلة السُّرَاةِ إلى اللَّه.. مَقَامُهُ بمقدمة الوادي، وكل السائرين إنما يسيرون خلفه! فإذا أدركتهم يا صاح فَالْحَقْ صَحْبَهُ! فإنهم هناك في ساحة الوادي، يَرُصُّونَ صفوفَ الصلاة جميعًا.. تلك سمتهم، فقد قال الصحابي الجليل أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: « وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ شَيْئًا إِلاَّ أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ جَمِيعًا! »(٣) لَا فُرْقَةَ ولا شَتَات، ولا فِتْنَةَ ولا افْتِئَات!

وإنك إن تقتربْ منهم تسمعْ من بين صفوفهم نشيجًا وبكاءً في الصلاة! رَهَبًا من اللَّه جل جلاله ورَغَبًا، وخُشُوعًا بين يديه تعالى وخُضُوعًا! وكيف لا يبكون وهذا سَيِّدُهُمْ وإمامُهم عليه الصلاة والسلام إذا افتتحَ الصلاةَ أَزَّ صَدْرُهُ من البكاء أَزِيزًا؟ فعن عبد الله بنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قال: « أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَفِي

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد، والنسائي، وابن خزيمة، وابن أبي شيبة، والبيهقي في الكبرى وفي الشُّعَب، كما رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. ثم صححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح، بينما حسنه في صحيح سنني النسائي وابن ماجه، واعتمده في صفة الصلاة. وقد حسنه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.
(٣) رواه البخاري.

صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ! »(١) والْمِرْجَلُ: القِدْرُ، إذْ تغلي بما فيها؛ فيكون لها أَزِيزٌ وعَجِيجٌ. وفي رواية أخرى صحيحة: « وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ! »(٢).

وفي مشهد آخر من أَجَلِّ مَشَاهِدِ النبوة، لم يزل رسولُ اللَّه ﷺ يبكي في صلاته؛ إذْ أَرَاهُ اللهُ من أسرار مَلَكُوتِهِ ما أَرَاهُ؛ حتى بكت الأرض ببكائه عليه الصلاة والسلام!.. فقد سَأَلَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عائشةَ رضي الله عنها، قَالَ: « أَخْبرينا بأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ! قال: فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ ﷺ: « **يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي!** » قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ.. قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ! فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: « **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟.. لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا!** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]»(٣).

وإنما البكاء في الصلاة على قَدْرِ الخشوع، وعلى قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ باللَّه.. ومَنْ أَعْرَفُ بربِّه من سيدنا رسول اللَّه؟ وكيف لا؟ وهو الذي أَرَاهُ اللَّه من حقائق

---

(١) رواه أحمد واللفظ له، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى وفي الشُّعَب، وأبو يعلى، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وصححه على شرط مسلم. وقال ابن حجر في الفتح: « إسناده قوي »: (٣/ ٦). كما صححه الألباني في مشكاة المصابيح، وصحيح الترغيب، وصحيح سنني أبي داود والنسائي. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: « إسناده صحيح على شرط مسلم ».

(٢) هي رواية أبي داود، والبيهقي في الشُّعَب، وقد صححها الألباني فيما ذكرنا بالهامش السابق.

(٣) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه. وقال الشيخ الألباني: « إسناده جيد »، وحسنه في صحيح الترغيب.

الغيب ما أَرَاهُ! وكَشَفَ لَهُ وَحْيًا وإسراءً ومعراجًا؛ مِنْ مَشَاهِدِ الجمال والجلال ما لا طاقة لمخلوق علَى تلقيه! كلَّا! ولا على مجرد تصوره بالخيال! فكان ﷺ إذا صلَّى قطع صلته بالتراب، ودخل في مناجاةِ ربِّ الأرباب، فلم يزل خاشعًا باكيًا؛ بما شاهدَ وعَرَفَ وعَلِمَ، حتى ينصرف عن الصلاة!

وكان عليه الصلاة والسلام - وهو النبيُّ المربِّي - يُقَرِّبُ أصحابَه من مَقَامِ محرابه المهيبِ تقريبًا، ويعلمهم أدب الوقوف بين يدي الملِك العظيم، ثم يكشف لهم الْحُجُبَ عن نوافذ المشاهَدات المشرفة على عالم الروح ومعارج الملكوت؛ فيشاهدون بعينه ﷺ ما تضطربُ له القلوبُ وتَقْشَعِرُّ له الأبدان! فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْم، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: « **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ؛ فَلاَ تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ، وَلاَ بِالسُّجُودِ، وَلاَ بِالْقِيَامِ، وَلاَ بِالانْصِرَافِ! فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي!** » ثُمَّ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا!** ».. قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ..!** »[١].

ومَرَّةً بَلَغَ رَسُول اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ؛ فَخَطَبَ فَقَالَ: « **عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؛ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ! وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا!** ».. **فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ رضي الله عنهم يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ! غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ!** »[٢].

ويَكْشِفُ عليه الصلاة والسلام الحجابَ مَرَّةً أخرى عن سِرٍّ عجيبٍ من أسرار الملكوت؛ فتنبهر له القلوبُ انبهارًا، ويسيطر الرَّهَبُ على النفوس؛ حتى إنَّ أحدَهم لَيَوَدُّ لو كان شجرةً يقطعها مُحْتَطِبٌ عابرٌ، وتنتهي قصةُ وُجُودِهَا إلى الأبد! فعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ،**

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه. والخَنِينُ: صوتُ البكاء عندما يخرج من الأنف.

وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ؛ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ! وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ! ».. قَالَ أَبو ذَرٍّ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ! »[1].

فأيُّ حِمْلٍ رهيبٍ هذا الذي وقع على كاهلك يا سيدي يا رسول اللَّه؟ وأيُّ قَوْلٍ ثقيلٍ هذا الذي أَرْسَى على قلبك الرحيم؛ حتى ما نطقتَ إذَا نطقتَ إلا بحكمة، وما سَكَتَّ إذَا سَكَتَّ إلا لحكمة! فإذا تَلَوْتَ تَلَوْتَ مُتَدَبِّرًا! وإذَا صَمَتَّ صَمَتَّ مُتَفَكِّرًا! وما رُئِيتَ ضاحكًا قَطُّ إلَّا تبسمًا! فعليك الصلاة والسلام يا نبيَّ اللَّه! أيَّ مَنْـزِلٍ اعتليتَ في طاعة اللَّه؟ وأيَّ مَقَام ارتقيتَ في حُبِّ اللَّه؟.. حتى إنك ما رفعتَ يديك مكبرًا في الصلاة؛ إلَّا بكيتَ من خشية اللَّه! فكان بكاءُ المحبة والخشوع بعضَ إرْثِكَ العظيم، الذي وَرَّثْتَهُ لهذه الأمة، لا يزال المؤمنون شهداءَ به على الناس - بصدق وإخلاص - إلى يوم الدين!

أَجَلْ..! كذلك كان رسول اللَّه ﷺ..! وكذلك كان صحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين..! وكذلك كان صاحبُه الأحب الأقرب، وخليفتُه الأول: أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ حليمًا كريمًا، رقيقًا أَسِيفًا، أَوَّابًا أَوَّاهًا، وَقَّافًا عند حدود الله، بَكَّاءً من خشية اللَّه، سواء في الذِّكْرِ أو في الصلاة! حتى إنه إذا صلَّى بالناس لم يكادوا يسمعون من قراءته شيئًا؛ بسبب ما يختنق في حنجرته من بكاء! فَعَنِ الصِّدِّيقَةِ بنتِ الصِّدِّيق عائشةَ رضي الله عنها: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ: « مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ! » قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ أَبا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ [وفي رواية: رَجُلٌ رَقِيقٌ]؛ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ! قَالَ: « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ! »[2].

---

(١) رواه أحمد، والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، والبيهقي في الكبرى وفي الشُّعَبِ، ورواه الحاكم بعدة طرق، وقال عن بعضها: « هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وحسنه الألباني في الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وصحيح سنني الترمذي وابن ماجه. وحسنه لغيره الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند. وقد روى البخاري هذا الحديث مختصرًا عن أبي الدرداء.

(٢) متفق عليه. وعبارة: « رجل رقيق » متفق عليها أيضًا.

وفي قصة أخرى من قصص المحبة، عن ترجمان القرآن، رباني هذه الأمة، صاحب رسول اللَّه ﷺ، وابن عمه الأكرم: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قصة ذات تباريح ومواجيد، يرويها عنه التابعي العابد الزاهد ابن أبي مليكة رحمه الله، قال: « صَحِبْتُ ابنَ عباس - رضي اللَّه عنهما - من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شَطْرَ الليل! فَسُئِلَ: كيف كانت قِرَاءَتُهُ؟ قال: قرأ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩] فجعلَ يُرَتِّلُ ويُكْثِرُ في ذلك النَّشِيجَ! »[١]. والنَّشِيجُ: شدة البكاء، إذا هاج على صاحبه؛ فبكى بصوت مخنوق في صدره، فصار له أَزِيزٌ كأزيزِ القِدْرِ أو الْمِرْجَلِ!

ولم يزل أصحاب رسول اللَّه رضوان اللَّه عليهم - وهم الصِّدِّيقُونَ والشهداء والصالحون - رُكَّعًا سُجَّدًا، على ما وصفهم اللَّه به من قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]. فكانت لهم تلك السِّيمَا نورًا تفردوا به من دون الخلائق والأمم يوم القيامة! وبذلك شهد لهم رسول اللَّه ﷺ: « **فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ، مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ!** »[٢].

وما قامت دولتهم يومَ قامت إلا على هذا الأساس العظيم! فقد كَتَبَ أميرُ المؤمنينَ عُمَرُ بْنُ الخطابِ ﷺ إلى عُمَّالِهِ في الأمصار والأقاليم، قَالَ: « **إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلاةُ! فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ!** »[٣].

وكان عمر ﷺ من أشد الناس حبًّا للصلاة! وكيف لا؟ وهو شهيد المحراب! فلم يزل يصلي بالمسلمين - في خلافته الراشدة - ساجدًا فوق التراب، متجردًا من كل حراسة وحجاب، متذللَ الأغصانِ بين يدي ربه ﷻ؛ حتى طَعَنَهُ عَدُوٌّ للَّهِ طعنةَ غَدْرٍ، ففاز ببشارة رسول اللَّه ﷺ: الشهادة والجنة! ولقد صلَّى ﷺ - رغم

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: (٣/ ٣٤٢).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه مَالِكٌ في الموطأ بسند صحيح.

ذلك - الفَجْرَ، وهو مُسَجًّى على الأرض، وإنَّ جُرْحَهُ لينـزف دمًا! فعَنِ الْمِسْوَرِ ابنِ مَخْرَمَةَ ﷺ قال: دخلتُ على عُمَرَ بْنِ الخطابِ وهو مُسَجًّى، فقلتُ: كيف ترونه؟ قالوا: كما ترى! قلت: أيقظوه بالصلاة؛ فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع له من الصلاة!

فقالوا: الصلاةَ يا أمير المؤمنين!

فقال: « هَا اللَّهَ إذن! ولا حَقَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة! ».

قال الْمِسْوَرُ: فَصَلَّى وإنَّ جُرْحَهُ لَيَثْعَبُ دمًا! »[1]. أي: يتفجر ويتدفق دمًا! وفي رواية أخرى لصلاة النـزيف: « فقال عمر: « نعم! ولا حَظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة! » فصلَّى عُمَرُ وجُرْحُهُ يَثْعَبُ دمًا! »[2].

فَلِلَّهِ دَرُّ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ! أيَّ رجلٍ كان؟!

وينتصب حارسُ رسول اللَّه ﷺ بغزوةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، قائمًا يصلي بليل، في ثغر حراسته من فم الوادي الذي عسكروا فيه؛ فيراه أحد المترصدين من المشركين، ثم يرميه بثلاثة أسهم! الواحد تلو الآخر، فجعل الدم يجري.. والرجل قائم يصلي ثابتَ الأغصان، يتلذذ بتلاوة القرآن، وبمشاهدة أنوار الكرامات والتجليات؛ تَلَقِّيًا كريمًا عن الرحمن، ولم يقطع صلاته! كَلَّا! ولم يفزع ولم يصرخ! في قصة من أغرب قصص المحبة! ومَشْهَدٍ من أعجب مَشَاهِدِ المغازي والسِّيَر..! وإن كنتَ يا صاح تطيق الدخولَ في صلاة النـزيف؛ فإليكَ فصلًا من فصولها الدامية:

كان الصحابي المجاهد جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّه ﷺ يُحَدِّثُ بعضَ التابعين بما رآه من كرامات أصحاب محمد ﷺ، فقال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوةِ ذاتِ الرِّقَاعِ، فأُصِيبَتْ امرأةٌ من المشركين [خطأ]، فلما انصرف رسولُ اللَّه ﷺ

---

(١) رواه البيهقي، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق في مصنفه، والدارقطني، والطبراني في الأوسط. وقال أبو بكر الهيثمي: « رجاله رجال الصحيح ».

(٢) رواه مالك في الموطأ.

قافلًا، جاء زوجها - وكان غائبًا - فَحَلَفَ أن لا ينتهي حتى يُهْرِيقَ دمًا في أصحاب محمد! فخرج يتبع أَثَرَ النبي ﷺ، فنـزل النبي ﷺ منـزلًا، فقال: « **مَنْ رَجُلٌ يَـكْلَؤُنَا ليلتَنا هذه؟** » فانتدب رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول اللّه! قال: « **فكونوا بفَمِ الشِّعْبِ!** » قال: وكانوا نزلوا إلى شِعْبٍ من الوادي. فلما خرج الرجلان إلى فَمِ الشِّعْبِ قال الأنصاريُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أيُّ الليل أَحَبُّ إليكَ أنْ أَكْفِيَكَهُ: أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوَّلَه. فَاضْطَجَعَ المهاجري فنَامَ، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجلُ [يعني المشرك] فلما رأى شَخْصَ الرجلِ [المسلم قائمًا يصلي] عَرَفَ أنه رَبِيئَةُ القوم [أي: حارس المسلمين]، فرماه بسهم فوضعه فيه! فنـزعه فوضعه وثبت قائمًا! ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه! فنـزعه فوضعه وثبت قائمًا! ثم عاد له بثالث فوضعه فيه، فنـزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أَهَبَّ صاحبَه، فقال: اجلس فقد أتيتُ! فَوَثَبَ [المهاجري] ! فلما رآهما الرجلُ عرف أنْ قَدْ نَذَرُوا به فهرب! فلما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان اللّه! ألا أَهْبَبْتَنِي؟ قال: كنتُ في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أُنْفِذَهَا! فلما تَابَعَ الرَّمْيَ ركعتُ فأَرَيْتُكَ. وَأَيْمُ اللّه لولا أنْ أُضِيعَ ثَغْرًا أمرني رسولُ اللّه ﷺ بحفظه لَقَطَعَ نَفَسِي قبل أن أقطعها أو أُنْفِذَهَا! »(1).

اللّه أكبر..!

يا لجَلاَلِ التَّعَلُّقِ بِفَلَكِ الصلاة السائر إلى اللّه! ويا لجمال القائمين تَـبَـتُّلًا بين يدي اللّه! ويا لَتَيْمِ الراكعين الساجدين من أصحاب رسول اللّه! فَلِمَ لا تتنـزل الملائكة فوق رؤوسهم؟ ولِمَ لا تؤنسهم بأنوار السُّرُجِ والقناديل، كلما أدلجوا متهجدين بالصلاة تحت جنح الظلام؟ ففي مشهد من أروع تجليات الجمال كان

---

(1) رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والبيهقي، وابن خزيمة، والدارقطني، والحاكم وصححه. كما رواه البخاري معلقًا مع اختصار القصة. وقد حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، كما حسنه الشيخ الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

ظِلِّيلُ الملائكةِ الصحابيُّ الكريم أُسَيْدٌ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يقوم الليل، وهو رجلٌ حَسَنُ الصوتِ بالقرآن، وَ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مَرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا! قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى [ابْنَهُ] فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ![1] عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا!.. قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مَرْبَدِي؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسِي.. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ !** » قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ !** » قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ!** » قَالَ: فَانْصَرَفْتُ؛ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ! عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا!.. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ! وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ!** »[2].

أولئك أصحابُ رسولِ اللّه ﷺ صِدِّيقونَ وشُهَدَاءُ.. كلما صَلَّوْا وَدَّعُوا عالم التراب، وتخلصوا من قيود الأجساد، وحَلَّقَتْ أشواقُهم صُعُدًا بمعارج الروح؛ حتى جَاوَرُوا أهلَ الملأ الأعلى..! ولقد كادت الملائكة أن تُصَافِحَهُمْ في الطرقات؛ لولا انصرافُهم فَتَرَاتٍ عن منازل الشهود الصافي إلى ضرورات الحياة! ويُقْسِمُ لهم النبي ﷺ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحَتْكُم الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ!** »[3].

فيا أيها الفتى الراكض في متاهات الزمان طلبًا للنجاة!.. أولئكَ هُمْ « **أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ!** »[4] وأولئكَ « **هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ!** »[5]

---

(١) جمع سِرَاج، وهو القنديل أو المصباح. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، وابن ماجه، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والحاكم، والطيالسي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، وصحيح سنن ابن ماجه. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٥) متفق عليه.

فَاللِّحَاقَ اللِّحَاقَ بِرَكْبِهِمْ! والسِّفَارَ السِّفَارَ إلى واديهم! فإنما حِمَاهُمْ حِمَى اللَّه، وإنما بيوتهم بيوتُ اللَّه! وَلِهُوا إلى الصلاة فكانوا أهلها، وعمروا المساجد فكانوا رجالها! ولم يزالوا - مُذْ لاَمَسَتْ بَشَاشَةُ الإيمانِ قُلُوبَهُمْ - رُكَّعًا سُجَّدًا ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

فيا قلبي العليل! أليس ذلك هو الحق؟.. بَلَى والذي نفسي بيده! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

* * *

والخاتمة فاتحة خير..

ما بقي وَقْتٌ أكثر مما ضاع يا صاح..! فلحاقًا بالطير المغردة على حوض الطهور..! واغرف وَضُوءَك من جدول النور؛ عسى تنفتح أغصانُك زهورًا تستمد طيبَها من عبير الجنة! وتستدر أنداءَها من حوض رسول اللّه ﷺ، فيكتسب عُودُكَ خُضْرَةَ ربيع لا يفنى، ونضرة جمال لا يبلى! فما كان لِغَرْسٍ أصابه رَذَاذٌ من حوض نبي اللّه أن يذبل أبدًا..!

هذا الشوق اللافح قد ألهب الجوانح العارفة باللّه، فاستجمع العطشُ منها خفقاتِ القلب؛ توقًا إلى حوض رسول اللّه ﷺ.. فما أن رشتها الأنداءُ بالبشرى حتى تسابقت الأقدام والخِفَافُ إلى موارد الضفاف! فما حوضك يا سيدي يا رسول اللّه؟

- قال: « **حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ! وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ! فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا!** »(١). وفي بشارة أخرى قال ﷺ: « **مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِن الْعَسَلِ، وَأَكَاوِيبُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ! مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا..!** »(٢).

كانت الحرائق تحيطك من كل مكان.. وكانت أصوات الشياطين تناديك من خلال الدخان، تزين لك أعمالك وألوانك، وضَياعك في حياة الأطياف الواهمة، والشهوات التافهة.. فتشعر بثقل الجناح، ورغبة كئيبة في الركون إلى التراب..!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، وفي صحيح الجامع رقم:(٣١٦٢)، وصحيح سنني الترمذي وابن ماجه.

فوا أسفاه..!.

ثم تعصف الرياح مذكرةً بأيام اللّه.. كانت الأدخنة أشد ما تكون! والروائح أنتن ما تكون..! وتتسع صحاري الشرود مبدية عن غوائلها الرهيبة.. فيميد غصنك خوفًا من المصير المجهول!

- أين تريد الآن يا صاح؟

وتومض بارقة في السماء.. فترتعش أفنانك لجلال النور وجماله!

وينطلق الأذان شلالًا صافيًا، يغمر الكون كله:

- اللّه أكبر!.. اللّه أكبر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح!..

ثم يمتد أمامك شعاع جميل، يتشكل طريقًا مُعْشِبَةً، ذات خضرة نورية، تمضي صُعُدًا إلى المسجد العالي.. وترى الغصون تتحرك من هنا وهناك، في هالات بهية.. كانت أطيافُ المصلين تمشي الْهُوَيْنَى، تنقل خطوات خاشعة نحو المسجد، قلوبها تخفق بأشواق المحبة، وتستضيء ببوارق الخوف والرجاء؛ فتوحِّد قصدها، وتخلص سعيها؛ تلبيةً لنداء الملك السلام، الداعي إلى دار السلام!

كان نداء الشيطان الساعة في قلبك أضعف وأبعد! وما هي إلا لحظات حتى تهب خاتمة الحداء العظيم: «لا إله إلا اللّه!».. بارقةً ربانية الومضات، رحمانية القطرات.. فتخشع القلوب لجلال الحقيقة الكبرى:

- لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..!

ويغمرك الشوق إلى مقام السلام، فتنطلق مواجيدك مسرعة، ترتقي مدارجَه العليا بقوة؛ فرارًا إلى اللّه!.. حتى تدخل تحت قباب الصلاة، نَدِيَّ الأغصان من أثر الطهور، فتعانقك مشاعر الطمأنينة والأمان.. كانت البارقة ما تزال تومض في السماء، ولأقواس المسجد ارتجاجٌ من الذكر والترتيل..! لم تزل أنواره تتدافع موجاتٍ، حتى تتدفق نحو الفضاء، فتتوهج الصوامع للحظة المباركة، ثم تتجرد شاهدةً على المتخلفين!

كان البرق شديدًا، يضرب بسيفه الناري عرضَ الأفق، من غير سحب

ولا ضباب! وكان قلبك خفاقا بمواجيد الشوق العظيم، وأحوال الراحة الشاملة.. لحظة؛ وتهب رياحٌ طيبةٌ من الجنة، فينفتح محراب التجلي البهيج، ويتدفق رضوان اللّه بتكبيرة الإحرام:

- اللّه أكبر..!

وتطل عليك ذاكرتك بأيام الشرود، سحابةً سوداء، فتقصمها بروق الجوار الكريم؛ وينهمر المطر..! كان بُكَاءً سخينًا، يهمي دمعُه في سكون، وللقلب أزيز دفين! وتضطرب زهورك الندية خوفًا ورجاءً، لدى استفتاح الصلاة، فتجرفك مواجيد الدعاء، وتبكي:

- **« اللَّهُمَّ بَاعِدْ بيني وبينَ خَطَايَايَ كمَا بَاعَدْتَ بين المشرقِ والمغرب! اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كمَا يُـنَقَّى الثوبُ الأبيضُ مِنَ الدَّنَسِ! اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بالماءِ والثَّلْجِ وَالبَرَدِ..! »**[1].

وتغمرك الواردات الربانية الكريمة، تلقي إليك بشائرَ الرحمة والغفران، متدفقة عليك من أبحر اللّه العظيمة! فما من جارحة فيك إلا وهي تستدر بَرَكَاتِ التقديس والسلام، من اللّه القدوس السلام..! وتسري السكينةُ بأنفاسِكَ الْحَرَّى بردًا وسلامًا؛ فتبكي فرحًا بكلمات اللّه! كان رسولُ اللَّه ﷺ مُشْرِقَ الجبين، مُتَهَلِّلَ الوجه، وهو يحدِّث عن ربه حديثَ الغفران:

« يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي..!

يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي..!

يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَـيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً! »[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي وحسنه. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، بينما حسنه في صحيح الترغيب.

فلكَ الحمدُ إلهي! لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك!

ولك الحمدُ إلهي! لك الحمدُ كما ينبغي لجمال عفوك، وكمال إحسانك!

ولك الحمدُ إلهي! لك الحمدُ ما ذكرَك الذاكرون، وما شرد عن طريقك الغافلون، وما رجاك التوّابون والمستغفرون!

ولك الحمدُ إلهي! لك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه..

لكَ الحمدُ مِلْءَ السماواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما بينهما، ومِلْءَ ما شئتَ من شيء بَعْدُ، أَهْلَ الثناءِ والمجد!

سبحانك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك، لا أحصي ثناءً عليك!

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

وكتَبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه: فريد بن الحسن
الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر اللّه له
ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين! وكان تسويده
بمدينة المحمدية / المغرب الأقصى، يوم
الأربعاء، رابع شعبان، سنة: ١٤١٣هـ،
الموافق للسابع والعشرين من
يناير سنة: ١٩٩٣م. والحمد
للّه الذي بنعمته تتم
الصالحات، وصلى
اللّه على سيدنا
محمد وآله
وسلم.

❊ ❊ ❊

نبذة عن المؤلف

- فريد الأنصاري.

- ولد بإقليم الرشيدية جنوب شرق المغرب سنة: (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب المحمدية - المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية - تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس - كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس. كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد اللّه، كلية الآداب - فاس / المغرب.

*** صدر له من الدراسات العلمية:**

١ - التوحيد والوساطة في التربية الدعوية « الجزء الأول والثاني » نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة القطرية بالعددين: (٤٧ و٤٨)، السنة: (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

٢- أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي، صدر ضمن منشورات الفرقان، الدار البيضاء: (١٩٩٧م).

٣- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب دراسة في التدافع الاجتماعي. منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٤- سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، (منشورات ألوان مغربية. ط الأولى، الرباط - طوب بريس: (٢٠٠٣).

٥- ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّٰه، مطبعة أنفوبرانت فاس، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٦- المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة دكتوراه)، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

٧- مفاتح النور، دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسل بإستنبول، ط. أولى:(٢٠٠٤م).

٨- الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة. مكناس المغرب، ط. الأولى:(٢٠٠٧م).

٩- مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٠- جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م). .

١١ - بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٢- مفهوم العَالِمِيَّة. دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٣ - الفطرية بعثة التجديد المقبلة: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩ م).

١٤- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

❊ **ومن الأعمال الأدبية:**

١ - ديوان القصائد: شعر، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء:(١٩٩٢م).

٢ - الوعد: شعر، مطبعة أنفوبرانت، فاس: (١٩٩٧م).

٣- جداول الروح: شعر، مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي. مكناس: (١٩٩٧م).

٤ - ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب: (١٩٩٩م).

٥ - كشف المحجوب: رواية، مطبعة أنفوبرانت، فاس: (١٩٩٩م).

٦ - آخر الفرسان: رواية، نشر دار النيل، استنبول: (٢٠٠٦ م).

هذا وقد توفاه اللّه تبارك وتعالى يوم الجمعة

(١٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ)، الموافق (٦/ ١١/ ٢٠٠٩م).

❊ ❊ ❊

هذا الكتاب

رحلة تؤنسك فيها « قناديل الصلاة » بأنوارها المشعة من الأذان إلى تكبيرة الإحرام إلى الفاتحة إلى الركوع والسجود ... هنا يا صاحِ! تحت شلالات الصلاة تستطيع أن تتخلص من أدوائك، وعبر بوابتها تستطيع أن تخرج من كهف ذاتك إلى عالم الخير والجمال وفضائه الفسيح.

أن تفتح محراب الصلاة، يعني أنك تبحر إلى مقامات النور تحت أشرعة السلام، عبر رياضة الأنبياء والصديقين.. حيث تفيض الروح ببهائها على سائر أعضاء البدن، فتوقد بين الجوانح قناديل تملأ القلب سكينة ومواجيد ذات هالات من نور تسري بك إلى مقام الجوار الأعلى لدى الملك العظيم، حيث تهبُّ عليك ألطاف السلام الندية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..... وتعود إلى وطن التراب أطهر ما تكون وأقوى على اختراق عاصفات الظلام! فما زال بين جوانحك نور علوي، لا يفتأ يستمد زيته من مشكاة الله، عن كل مطلع جديد من المطالع الخمسة، في مدار الكوكب الدري، فإذا شئت الإدلاج إلى محبوبك فاركب معنا « قناديل الصلاة ».

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٥٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 977-342-733-1